

حِكَمُ ذيفتروس

مجموعة قصصيّة حكميّة



تأليف

مكاريوس جبّور

أيلول ٢٠١٨

حِكَمُ ذيفتروس

مجموعة قصصيّة حكميّة



تأليف

مكاريوس جبّور

أيلول ٢٠١٨



طبعة أولى
أيلول ٢٠١٨

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

إهداء

إلى أبنائي آنجيلا والياس ويورغو
لتكن لكم هذه القصص دروسًا للحياة

تقديم

ليست هذه المجموعة القصصيّة إلاّ أحلامًا (منامات) أبصرتها، في فترات متقطّعة من حياتي، وكنت أنهض من النوم لأدوّنها.

وكنت أرى نفسي في الأكروبوليس ،حيث الفلاسفة والحكماء، أجلس معهم وأتعلّم منهم.

وأشهر هؤلاء ذيفتروس الذي كنتُ أحلم به، وأنهض لأنقل ما تلقّنته منه من حكم وقصص وأمثال. وهو طبعًا شخصيّة من نسج الخيال.

وكليّ أمل في أن يغتني منها كلّ مَن يقرأها.

أشكر حضرة الأستاذ الصديق شكري شكر على تدقيقه الكتاب وتقديم النصائح.

مكاريوس

الثامن والعشرون من أيلول 2018

عيد ميلاد وليّة العهد

كان ذيفتروس العظيم قد تقدّم كثيرًا في السنّ، عندما أنجبت الإمبراطورة أثناسيّا مولودها البكر، وكان فتاة مشرقة كالشمس ومنيرة كالنجوم، وأطلقت عليها اسم آنجيلا أي ملاك الإمبراطوريّة. ويوم ميلادها ابتهجت الإمبراطوريّة بشرًا وحجرًا، ودامت الاحتفالات بمولدها أربعين يومًا وأربعين ليلة.

وانبرى العرّافون والمنجّمون يكتبون عن مستقبل هذه الابنة الرائعة التي ستتربّع على عرش المملكة في يوم من الأيام. فهذا قال إنّها ستتخلّى عن العرش وتختار طريق الحكمة، وقال آخر إنّها ستُصبح أشهر طبيبة في الإمبراطوريّة، وهكذا ودواليك.

ونمت الطفلة في البيت الوالدي العريق، وترعرعت على يدي سيّدة العزّ والجمال أثناسيّا، ولم يترك والدها بابًا أو سبيلاً لتلقينها الحكمة إلاّ وفتحه أمامها، فاختار لها أكابر فلاسفة البلاط، ووضع بين أيديهم جميع الوسائل لئلاّ يعوزهم شيء في التعليم والتلقين.

وعندما بلغت الثامنة من عمرها، حضر ذيفتروس إلى البلاط فجأة، وطلب الاختلاء بوليّة العهد، وأدهش حضوره الملكة وجميع مَن في البلاط، وعانقته طويلاً، وذكّرته بكلماته لها وبنصائحه، وبكت على صدره لأنّه تركها في يوم من الأيام ورحل، ولم يُخبرها عن حقيقة رحيله.

بعد ذلك، جلس زيفتروس مع الطفلة السماويّة، وطلب منها أن تأخذ لوحًا وتدوّن عليه نصائحه التالية:

يا ابنتي إليك أسرار الحياة

١. سرّ السعادة هو العطاء بدون قيد أو شرط وبدون حدود.

٢. مفتاح الحكمة هو الصبر على كلّ شيء وفي جميع الصعاب.

٣. مفتاح القلوب هو الصدق.

٤. سرّ الشقاء هو البخل.

٥. الأنانيّة قاتل متخّفٍ بثياب أنيقة.

٦. حيث لا محبّة لا وجود للحكمة.

٧. العين أعظم مدرسة للإنسان الذي يريد التعلّم.

٨. غاية الطفولة والشباب بلوغ شيخوخة هانئة.

٩. لا تنحني لأحد إلاّ إذا كنتِ على خطأ.

١٠. الاعتذار برهان على عظمة الإنسان.

١١. التمسّك بالحقّ فضيلة نادرة.

١٢. لا تأخذي موقفًا من أحد مهما اختلفتِ معه، لأنّ الإنسان غير ثابت وأفكاره أيضًا غير ثابتة.

١٣. أحبّي أن تكبري، واقبلي أن تكبري، وتعلّمي كيف تكبرين، ومتى كبرتِ استمتعي بأنّك بلغت نضج العقل ولو أصبح جسمك مريضًا.

١٤. لا تُتعبي نفسك في البحث عن أجوبة لأسئلة عجز الفلاسفة عن إيجاد أجوبة عنها.

١٥. الصمت مدرسة العقلاء.

١٦. الموسيقى هي العربة التي تقودك نحو صفاء النفس.

١٧. الله في داخلك فلا تحاولي التفتيش عنه في الخارج.

الصدق والكذب

في عشيّة اليوم الأخير وهو الأوّل من السنة الجديدة، أبصرت ذاتي في الأكروبوليس وسط مدرسة الفلاسفة العظماء. وجدتُني جالسًا بالقرب من فيلسوف مسنّ يُدعى بروتوس، وقد اجتمع حوله عدد غير قليل من الناس، بينهم الكبير والصغير. كان موضوع حديثه الصدق. ورأيته يشرح بهدوء وبلاغة مفاهيم الصدق، فسأله أحدهم: ما هو الصدق وما الكذب؟ فأجاب: اسمعوا هذه القصّة فتفهموا.

مَثَل رجلان في المحكمة أمام أحد القضاة ليحكم في ما بينهما بشأن كيس من المال كان أحدهما قد وجده على الطريق، وصادف أن رآه الآخر عندما وجده، وأخذ يدّعي بأنّه له وقد أضاعه. وبدأ الشجار بينهما، وأصرّ كلّ منهما على أنّ كيس المال ملكه. وعندما علت أصواتهما، وبدأ أحدهما يأخذ بخناق الآخر، أتى الشُرط وقبضوا عليهما، وأحالوهما إلى المحكمة، فمثَلا أمام القاضي. وبعد أن عرف قصّتهما، أراد أن يعرف إذا كان مَن يدّعي بأنّ الكيس له صادقًا.

سأله القاضي: هل الكيس لك؟

أجاب: نعم، بكلّ تأكيد.

فأردف القاضي: إذًا، أنت تعرف المبلغ الذي في داخله.

أجاب: نعم، يا سيّدي. واضطّرب متردّدًا.

فقال القاضي للآخر: هل تعطيه الكيس إذا عرف كميّة النقود الموجودة فيه؟

فأجاب الرجل الذي وجد الكيس: كلاّ، لستُ أُعطيه، يا سيّدي، حتّى لو عرف كميّة المال الموجودة في الكيس، فربّما يكون الأمر مجرّد صدفة.

أجاب القاضي: قل لي، إذًا، كيف تريدني أن أعرف صدقه مِن كذبه؟

أجاب الرجل: فليُقسم أمامك وأمام الآلهة بأنّه له. وأنا أُعطيه إياه فورًا.

حينئذ قال لهما القاضي: غدًا، في تمام الساعة العاشرة تحضران إلى المعبد، ويكون الحكم النهائي أمام الآلهة. أمّا الآن فاتركا الكيس محفوظًا في خزنة المحكمة.

ذهب كلّ منهما في سبيله. وبعد أن أنهى القاضي عمله، أخذه فضوله وأراد أن يعرف كميّة المبلغ الموجودة في الكيس، ففتحه، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى أنّ الكيس يحتوي على مائة دينار، وعلى ورقة صغيرة كُتب عليها اسم امرأة.

في اليوم الثاني، حضر الرجلان ومثَلا في المعبد بحضرة الآلهة، لكنّ القاضي تأخّر عن الحضور. فاضطّربا جدًّا. وأخذ الوقت يمرّ بطيئًا جدًّا في نظرهما. وعند منتصف النهار حضر القاضي إلى المعبد ومعه امرأة. فتعجّب الرجل الذي وجد الكيس من إحضار القاضي لهذه المرأة، ولكنّه لشدّة اهتمامه بالمال نسي أنّ القاضي قد تأخّر ولم يهتمّ لأمر المرأة. فقال القاضي: هل أنتما على استعداد للمثول أمام الآلهة؟ وهل أنتَ مستعدّ للقسم بأنّ الكيس لك؟ هزّ الرجل رأسه وقال: نعم، والخوف ظاهر على وجهه.

عندئذ غضب القاضي: وقال له: أنت رجلٌ كاذب. إنّ الكيس هو للمرأة، وهذه هي العلامة، وفتح الكيس وأخرج الورقة وعليها اسم المرأة، وقال: إنّ هذا الكيس هو مُلك هذه المرأة.

وأمر القاضي بأن يوضع الرجل في السجن، وسلّم الكيس إلى المرأة، فأخذته بصمت وخرجت، وذهب الرجل الآخر في سبيله.

لكن لا بدّ للحقيقة من أن تظهر. فقد كان الرجل، الذي أودعَ السجن، رسول الملك والقيّم على خزينته، وكان مُرسلاً من قِبل الملك ليحمل إلى هذه المرأة الفقيرة كيس المال. ولم يكن يُريد أن يخالف وصيّة الملك بالصمت عن عمل الخير. فلمّا عرف الملك بأنّه تأخّر عن العودة، أرسل الملك مَن يسأل عنه. وعندما بلغته الحقيقة، أمر بإخراجه من السجن.

وأرسل فاسترجع المال من المرأة لأنّها لا تستحقّه، ولأنّ طمعها دفعها إلى إخفاء حقيقة عدم معرفتها شيئًا عن أمر الكيس حتّى لو كان مُرسلاً إليها. وعيّن الملك هذا الرجل وزيرًا للماليّة مكافأة له على صدقه وأمانته.

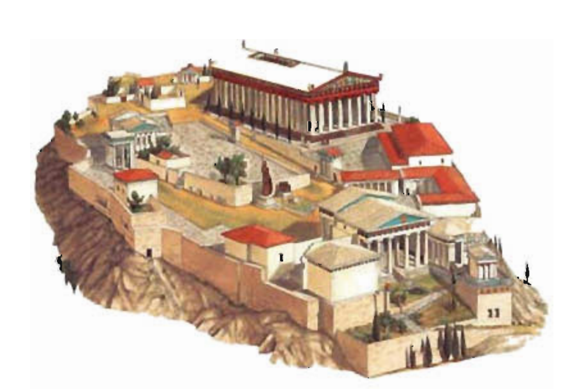
بعد أن أنهى بروتوس القصّة، قال: لا يكمن الصدق في قول الحقيقة وحسب، إنّما الصدق الحقيقيّ هو الأمانة. والصدق الحقيقيّ لا يهاب الظلم لأنّه يعرف بأنّ الحقيقة ستُكشف يومًا مهما ساد الظلم واستبدّ الطغيان، وأعمى الطمع عيون الناس. وأردف الفيلسوف: ليس الكذب دائمًا هو التفوّه بنقيض الحقيقة، بل إنّ إخفاء الحقيقة، في أغلب الأحيان، أعظم من أيّ كذب. وصاح: مَن أراد أن يتعلّم فليتعلّم.



الحقائق

في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني، أبصرتُ ذاتي مجدّدًا في الأكروبوليس وقد احتشد جمع غفير عند الفيلسوف ذيفتروس العظيم، وكان الكلام عن الحقائق.

فسأله واحد: ما هو الصمت؟



فأجاب: إنّه كلام الآلهة.

وسأله آخر: ما هو كلام البشر؟

فأجاب: إنّه ضجيج وضوضاء.

وسأله ثالث: ما هو النوم؟

فأجاب: إنّه سدّ الجوع إلى الموت.

وسأله رابع: ما هو الشوق؟

فأجاب: إنّه صراخ الروح.

وسأله خامس: ما هي الدموع؟

فأجاب: إنّها ثلاثة: دموع الطفل وهي صوت الحقيقة. دموع الرجل وهي الألم من الحقيقة. دموع الآلهة وقد أسالتها ضوضاء البشر.

فتعجّب الناس من جواب ذيفتروس العظيم، ونهضت امرأة وقالت: ما هي إذًا دموع المرأة؟

صمت الفيلسوف برهة ثمّ قال: إنّها نوعان: دموع الطفلة وهي كدموع الطفل. ودموع الأمّ التي فقدت ابنها وهي دماء الآلهة.

فعادت المرأة وسألته: ماذا عن باقي الدموع؟
فأجاب: ليس كلّ ما يسيل من العيون دمعًا.
وسأله رجل شريف: ما هو الكرم؟
فقال: إنّه أجرة الطريق المؤدّية إلى الخلود.
وسأله آخر: ما هو الحسد؟
فقال: إنّه عزاء عشّاق الحظّ.
فعاد وسأله: وما هو الحظّ؟
فقال: أن نكون الآن معًا.



الحقائق

في اليوم الثالث من شهر كانون الثاني أبصرتُ ذاتي مجدّدًا في الأكروبوليس جالسًا، مع حشد كبير، استمع إلى الفيلسوف الكبير ذيفتروس. وكان لا يزال يتكلّم عن الحقائق. فتقدّم إليه رجل وسأله: ما هي المحبّة؟

فأجاب: إنّها غذاء الآلهة لأرواح البشر.

وسأله أيضًا: ما هو الألم؟

فأجاب ذيفتروس العظيم: قانون الأرض.

وسألته امرأة: ما هو السبيل على عدم الألم؟

فأجاب: إيقاف الزمان وتدمير الأكوان وموت الأبدان.

فخجلت المرأة لدى سماعها جواب الفيلسوف، وجلست تستمع بدون أن تتجاسر على طرح أيّ سؤال.

وسأله شابّ: كيف تبدأ الفلسفة وكيف تنتهي؟

فأُعجب ذيفتروس بالسؤال وقال: تبدأ بطرح الأسئلة، وتنتهي بطرح جميع الأجوبة التي أُعطيت على جميع الأسئلة.

فقال الشابّ: وماذا يبقى؟

فأجاب: لا يبقَ سوى الإنسان على مفترق طريق: الإلحاد أو الإيمان.

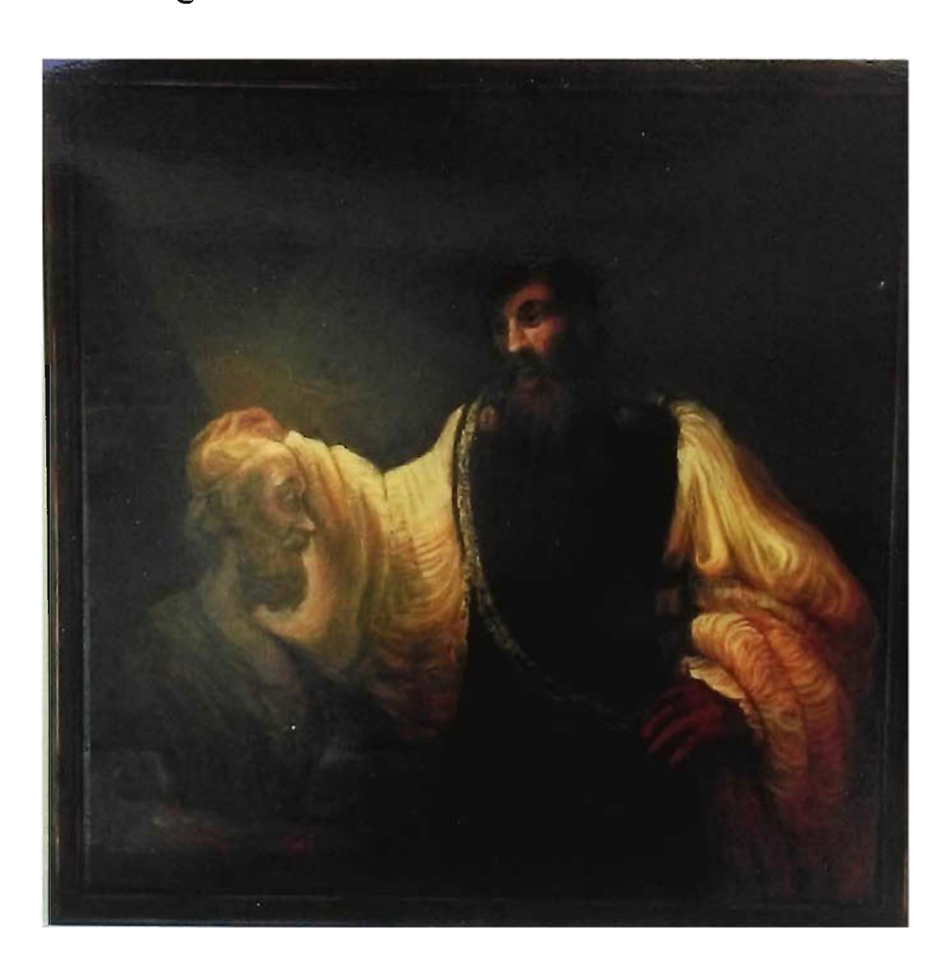
فعاد الشابّ وسأل: فلماذا، إذًا، أنتَ تغوص في عالم الفلسفة؟

فأجاب: لكي أصل إلى الإيمان.

أردف الشابّ فورًا: وما هو الإيمان؟

فحزن ذيفتروس وقال بألم: إنّه شجرة المعرفة التي قطعها الإنسان، وبقطعها هُدمت الجسور بين الأرض والسماء وفُقِد التوازن بين الخير والشرّ، وبدأ الزمن. الإيمان هو الحنين إلى عالم الآلهة. هو الذرّة الوحيدة الباقية من عالم الآلهة لتذكّرنا بجرائمنا نحن البشر. ولكي تجد هذه الذرّة لا بدّ لك من الفلسفة.

قال هذا، وصمت الفيلسوف، ونهض وسار نحو المعبد تاركًا الجميع.



بلوغ الحكمة

في اليوم الرابع من شهر كانون الثاني أبصرتُ ذاتي مجدّدًا في الأكروبوليس جالسًا، مع حشد كبير، استمع إلى الفيلسوف الكبير ذيفتروس. وكان يتكلّم عن بلوغ الحكمة. ولكنّه بدا، هذه المرّة، مُنهك القوى. وكان يقول للجموع: ماذا تظنّون، أيمكن أن يكون أحدكم قادرًا على التخلّي عن الحياة في سبيل بلوغ الحكمة؟ اسمعوا هذه العِبرة.

في أحد الأيام، دخل عليّ رجل، وكنتُ مستلقيًا أحاول إراحة جسمي الثقيل، وقد ظهرت على وجهه علامات حزن شديد. فرحّبتُ به، وقدّمتُ له شيئًا ليشرب، ولم أسأله عن حاجته، أمّا هو فجلس صامتًا في زاوية الغرفة، وشعرتُ بأنّه لا يريد التكلّم. فتركته على حاله وعدتُ لأكمل استراحتي. وداهمني نعاس شديد، فنمتُ بدون أن أشعر، ومضت ساعة استيقظتُ بعدها لأجده على حاله قابعًا في الزاوية، فتركته وخرجتُ، وتوجّهتُ نحو الغابة، كما هي عادتي، وعندما عدتُ في المساء وجدته أيضًا على حاله. فاحترتُ بأمره، وسألته إذا كان يريد أن يأكل شيئًا، أمّا هو فلم يجبْ بكلمة. وهكذا تركته مجدّدًا. واستمرّ الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام. وفي نهاية المطاف، نهض وهمّ بالخروج، فاستوقفته وحمّلته بعضًا من التمر والزبيب ليتزوّد في الطريق، وخرج بدون حتّى كلمة شكر. فقلتُ في نفسي يا له من رجل مسكين، وحدها الآلهة تعرف حجم مصيبته. ومضت شهور عدّة.

وفي أحد الأيام، وبينما كنتُ أهمّ بالخروج نحو الغابة، سمعتُ أصوات عربات وضجيج خيل وفرسان. فلم أكترث للأمر، بل تابعتُ سيري نحو الغابة. ولكنّ الأصوات كانت تقترب أكثر فأكثر، إلى أن هدأ كلّ شيء. وإذ بالرجل يتقدّم منّي ويقف أمامي، فعرفته من وجهه، غير أنّ ثيابه كانت تدلّ على ملك. وأخرج لفافة كبيرة ودفعها إليّ، ففتحتها وبدأت أقرأها.

عددتُ حبّات التمر والزبيب، وفكّرت بأن أردّ لك عوضًا منها مائة ضعف ذهبًا، لكنّي أدركتُ أنّك لن تقبلها وأنّك بغنى عن كنوز الأرض.

جمعتُ لك جميع أصناف المشارب من خمر وعصائر وعطور ألف رطل من كلّ صنف، ولكنّي عدتُ وقلتُ في نفسي إنّك لا تحتاج إلى جميع هذه الزائلات.

أصدرتُ مرسومًا يقضي بتعينك رئيسًا للقضاة، ولكنّي لم ألبث أن عرفتُ أنّك لستَ بحاجة إلى كرسيّ للقضاء.

وكم من أشياء هيّأتها تعبيرًا عن شكري لك، ثمّ عدلتُ عنها وقد فطنتُ بأنّك بغنى عنها.

وأخيرًا، جمعتُ جميع حكماء مدينتي، وأخبرتهم بما جرى، وكيف أتيتُ إليك وماذا فعلتَ معي. فاجتمعوا وتفاوضوا، وأتوني بهذا الجواب:

إذا كان قد صمتَ ولم يسألك شيئًا لأنّه عرف مصيبتك فهو رجل حكيم.

وإذا كان قد صمتَ لكي لا يزعجك بفضوله فهو من محبّي الحكمة.

أمّا إذا قد صمت فقط عن جهل لما أنتَ فيه، فيكفي استقباله لك ليكون رجلاً شهمًا. وها أنا أتيتُ إليك لأعرف الجواب.

لففتُ الكتاب ودفعتُه إليه وقلتُ له: عرفتُ بأنّ ابنك وحيدك قد مات، فقلتُ في نفسي إنّ حاجتك إلى الصمت هي التي أتتْ بك إلى هنا.

وبما أنّ مصابك أكبر من أيّ كلام أو تعزية، قلتُ إنّ كلامي لن ينفع في شيء.

ولكنّ صمتك مدّة ثلاثة أيام كان مدوّيًا لدرجة أنّي بقيتُ من بعد رحيلك أُعالج أذنيّ بالأعشاب مدّة طويلة إلى أن استعدتُ سمعي.

أما الآن فأقول لك: الموت هو الفلسفة الوحيدة التي تجعل منّا حكماء بدون دروس. وأنا قرّرت منذ زمن بعيد أن أبلغ الحكمة.

قال هذا ذيفتروس العظيم، وقفل عائدًا إلى الغابة.

الحقائق

في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني، أبصرتُ ذاتي، كالمعتاد، في الأكروبوليس. وكنتُ جالسًا أستمع إلى الفيلسوف العظيم ذيفتروس. وفجأة نهض الفيلسوف ودعا الجميع إلى المضيّ معه عند الفيلسوف بروتروس. فلبّى الجميع الدعوة. وأدركتُ أنّ مناظرة شيّقة ستأخذني وتنطلق بي إلى عالم آخر. ولم يخبْ ظنّي أبدًا.

بعد سلام مهيب بين الفيلسوفين، عرفتُ بأنّ الإمبراطور آتٍ ليحضر المناظرة وهو الذي سبق أن طلب من الفيلسوفين العظيمين الاستماع إلى رأيهما بخصوص الحقائق.

وفي الموعد المحدّد، تقدّم جنود الإمبراطور وفتحوا الطريق وأبعدوا الجموع، ووصل جلالته مع بعض أفراد حاشيته، فرحّب به الفيلسوفان واتّكأ على الأرض، وأمرهما بالكلام.

فقال الإمبراطور: أنتما تعيشان في عالمكما الخاصّ، وتلقّنان الناس علمًا لا يفقهون منه شيئًا. تتكلّمان بمثاليّة مطلقة والعالم بمعزل عمّا تتكلّمان. فالآن أخبراني، ماذا تظنّان بالحقائق، هل توجد حقائق خارج ما هو واقعيّ، أم إنّ كلامكما الفلسفيّ ليس بالنسبة إلى الناس سوى أحلام وأوهام؟

صمت الجمع، وفكّر بعضهم ما عسى أن يكون جواب الفيلسوفان، لا شكّ أنّهما في مأزق محرج.

فاستأذن بروتوس العظيم صديقه ذيفتروس وأجاب: عفوكم، يا مولاي، اسمحوا لي أن أقول لكم إنّ كثيرًا من الأحلام يكون واقعيًّا أكثر من الحقيقة عينها.

والمثال على ذلك، أكمل ذيفتروس، هو وجودكم اليوم على رأس هذه الإمبراطوريّة العظيمة. واسمحوا لي أن أخبركم سرًّا صغيرًا. عندما حان وقت رحيل والدكم الإمبراطور عن هذه الأرض إلى الأبديّة، استدعاني فمثَلتُ في حضرته، فسألني قائلاً: قل لي، يا ذيفتروس، مَن من ابنيّ يستحقّ أن يرث العرش بعدي ويسوس الدولة بالحكمة والعدل؟

وكان أخاكم، يا مولاي، مشهورًا بحدّة ذكائه وسعة فهمه، في حين كنتم أنتم لا تزالون فتىً يافعًا يتتلمذ على يدي صديقنا الفيلسوف الشهير ممبتوس. وكان أخاكم يخوض الحروب ويرتقي من نصر إلى نصر.

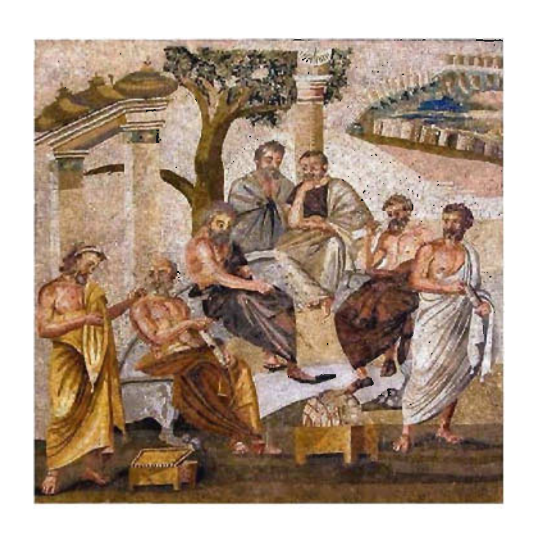
في تلك الليلة، توقّع جلالته كلّ شيء إلاّ أن أقول له إنّكم أنتم مَن يستحقّ أن يرث العرش، وإنّكم ستعرفون أن تسوسوا البلاد بالحكمة والعدل. وما إن تفوّهتُ باسمكم حتّى انتفض من سريره ونهض وجلس وقال لي: ويحك، يا ذيفتروس، ما الذي تقوله؟ لا شكّ في أنّك تريد هدم كلّ ما بنيتُ طيلة هذه السنين وتدميره.

أمّا أنا، فابتسمتُ وأجبته، يا مولاي، إنّ الحقائق تسمو، ولا يسمو عليها شيء، ولكن ما هي الحقائق؟ إنّ ابنكم البكر رجل شجاع ومقدام وقوّي البنية، مطيع ومهذّب ولبِق، وقد حقّق لكم جميع هذه الانتصارات، غير أنّه لا يعرف الفلسفة، ولا يلمّ بالعلم والقانون والبلاغة، فكيف سيستطيع أن يُفاوض الملوك، وأن يعقد الصفقات مع الأعداء؟ أمّا ابنكم الأصغر فهو الآن يتتلمذ على أيدي الفلسفة ويغرف منهم الحكمة والحقيقة، وسيكون، يومًا ما، أعظم إمبراطور عرفه التاريخ.

ما إن سمع والدكم، يا مولاي، هذا الكلام، حتّى هدأ، وعاد فسألني: ولكن، قل لي، يا ذيفتروس، مَن يستطيع أن يحكم البلاد خلال هذه الفترة حتّى يكون ابني قد نضج؟

فأجبته: عفوكم، سيّدي، لا يوجد، في المملكة رجل يملك الحقائق بين يديه سوى بروتوس، فليكن هو مَن يتولّى حكم البلاد حتّى يبلغ ابنكم السنّ القانونيّة ويتولّى الحكم. تدخّل هنا بروتوس وقال: سامحك الله، يا ذيفتروس، ما كان ينبغي أن تتفوّه بمثل هذا الكلام. ولكن اسمحوا لي يا مولاي أن أقول: أن يتولّى بروتوس الحكم، كان حلمًا مستحيل التحقيق، وحتّى عندما كان على سدّة القيادة، كان يعرف بأنّه حلم، وحتّى بعد أن تركها كان يعرف أنّه عاش حلمًا، ولكنّ هذا الحلم كان واقعًا حقيقيًّا. أمّا الحلم الأصعب فهو أنّكم لولا نصيحة ذيفتورس ما كنتم اليوم على رأس الدولة. وها أنتم تقودونها بحكمة وعدل. فاستمرّوا على هذه الحال، ولكم وللبلاد النصر والازدهار.

عندئذ فرح الإمبراطور جدًّا، وصاح في الجموع: لقد صدق الفلاسفة: إنّ كثيرًا من الأحلام يكون واقعيًّا أكثر من الحقيقة عينها.



السياسة

في اليوم السادس من شهر كانون الثاني، أبصرتُ ذاتي في قصر الإمبراطور فيلبّوس الثاني والد الإسكندر، استمع إلى حديث عن السياسة وحُسن إدارة الدولة للفيلسوف العظيم ذيفتروس.

بدأ ذيفتروس كلامه بتعريف السياسة فقال: ليست السياسة قيادة، كما يفهما البعض من الناس، وليست الحكم بعدل، كما يفهمها بعض القادة والملوك، وليست حُسن إدارة الدولة، كما يظنّها بعض الأباطرة. السياسة هي تحقيق المستحيلات، وهي التدبير. وهي تقوم على مبادئ ثلاثة: الرغبة في الخلود، وتغيير مسيرة التاريخ، والقضاء إلى الصدفة.

أمّا الرغبة في الخلود فتتجلّى في تحقيق ما لم يحقّقه آخر على مستوى الرحمة والعدالة والأخلاق.

أمّا تغيير مسيرة التاريخ فيقوم على أساس تحدّي ما نسمّيه بالصدفة. لم تصنع الأقدار رجالاً عظماء، ولم ترفع الحظوظ جاهلاً إلاّ وعاد إلى جهله بعد زوال الحظّ.

ترتكز السياسة على جعل جميع المواطنين آلهة، وهذا أمر لا يستطيع تحقيقه إلاّ ملك واحد مؤمن بألوهيّته وبإمكانيّة ارتقاء أبناء جنسه إلى درجة الألوهة. وربّما سيأتي يوم على الأرض ملك يعرف أن يحقّق هذا المستحيل، ويغيّر مسيرة التاريخ، فتصبح أرض البشر مكان التقاء الآلهة وبالبشر، فيتألّه البشر وتتأنسن الآلهة.

لذلك، فالسياسة اليوم تقتضي أن نحضّر لهذا الملك دولة لا فرق فيها بين سيّد وعبد.



الفضائل

في اليوم السابع من شهر كانون الثاني وجدتُ نفسي أيضًا في الأكروبوليس صُحبة عظيم الفلاسفة ذيفتروس، وكان الحديث عن الفضائل.

قال ذيفتروس: الفضائل هي جواهر الأشياء أو النباتات أو الحيوانات أو الناس. ولأنّها هكذا فلا يمكن انتزاعها أو تغييرها قطّ، إذ إنّها تشكّل وجميع هذه الكائنات وحدة في الجوهر أساسيّة، وإذا انتفتْ، زال معها الكيان.

تتعدّى فضيلة الإنسان كونه كائنًا حيًّا وتتخطّاها، فأن يكون هذا الكائن الحيّ إنسانًا، هذه هي الفضيلة بالذات. يعتبر كثيرون من الحكماء أنّ العقل هو فضيلة الإنسان، ويعتبر آخرون أنّ العاطفة هي فضيلته، ويرى قوم آخر أنّ فضيلته تكمن في قابليّته للتطوّر. أمّا أنا فأعتبر أنّ جميع هذه الأقوال، وإن احتوت على شيءٍ من الحقيقة إلاّ أنّها لا يمكن أن تعبّر عن معنى الفضيلة، لأنّ جميع هذه الأمور نجدها عند مختلف الكائنات الحيّة، فالحيوان له نوع من العقل وإن كان يختلف عن عقل الإنسان بنواحٍ معيّنة، إلاّ أنّه يشترك معه بنواحٍ أخرى عديدة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى العاطفة أو إلى قابليّته على التطوّر. من أجل ذلك، أرى من الواجب التخلّي عن الأعراض والغوص في الجوهر.

تكمن فضيلة الإنسان في كونه إنسانًا، أي في كونه غير قابل للتحوّل جوهريًّا إلى ما ليس بإنسان، لا بالجوهر ولا حتّى بالعرض. وأعطي مثلاً على ذلك، إذا وضعت الماء فوق النار وتركتها مدّة من الزمن، فإنّها ستغلي وستتبخّر، وهذا يعني أنّها ستتحوّل عرضيًّا من حال البرودة إلى حال السخونة، وجوهريًّا من حال السيلان إلى حال التبخّر. ربّ معترض يقول

لي: ولكنّ جوهرها كماء لا يتغيّر، بل إذا وُضعت في ظروف معيّنة تعود لتكون ماءً سائلاً كما كانت عليه قبل تتحوّل إلى بخار. فأجيب: معك حقّ في جزء كبير ممّا قلت، ولكنّك نسيتَ أنّ هذا التحوّل، مهما قصُرت مدّته، قد أفقدها صفات أساسيّة عديدة من طبعها، وبالتالي أوجب ألاّ يُطلق عليها اسم ماء، بل اسم بخار (الماء). يصحّ هذا الأمر على مختلف الكائنات، فالدجاجة، مثلاً إذا، ذُبحتْ لا تبقى دجاجة، بل تُصبح لحمًا معدًّا إمّا للأكل أو للرمي في علبة النفايات.

ولكن ما هي، إذًا، فضيلة الإنسان؟ في الحقيقة، تكمن فضيلة الإنسان في شيء أساسيّ وجوهريّ، وهو كونه إنسانًا، وهذا يعني ثباته في الجوهر، وإمكانيّة تطوّره ونموّه في العديد من الأعراض. فإذا انتفت إحدى هاتين الحقيقتين لم يبقَ إنسانًا، بل أصبح شبه إنسان أو شبيهًا بالإنسان. وجوهر الإنسان هو إنسانيّته التي يجب أن تكون صورة مطابقة للخالق من حيث المحبّة والتضحية والعطاء وبذل الذات والتواضع والكرم والبساطة، وإلى ما هناك من صفات هي في ومن جوهر الخالق وقد منحها للإنسان، ولا يجب أن تتغيّر، أمّا العرض أو الأعراض فهي شكله وسنّه وطموحه، وهي قابلة للتطوّر والنموّ شرط ألاّ تتعارض مع الجوهر، تنمو فيه وبه ومعه، وفي حال لم يحصل ذلك، فهذا يعني أنّ الجوهر الإنسانيّ فيه فقدَ شيئًا أو جزءً من أصالته، وبالتالي فالعرض يتبع الجوهر.

الفضائل، إذًا، هي تطابق الحقيقة الواقعيّة مع الصورة الأصليّة، ومتى شوّهت الصورة فلا حاجة إلى الغوص في التحاليل والتفاسير ومحاولة إيجاد الحلول واللعب على المسلّمات. فضيلة الإنسان تكمن في كونه إنسانًا، فإذا صار مشابهًا لما هو ليس بالإنسان فعلى الفضيلة السلام.

قال هذا ذيفتروس العظيم وانطلق عائدًا إلى بيته.

الكمالات

في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني وجدتُ نفسي أيضًا في الأكروبوليس صُحبة عظيم الفلاسفة ذيفتروس، وكان الحديث عن الكمالات.

قال ذيفتروس: الكمال هو الاكتمال، والاكتمال هو التمام، والتمام يعني الانتهاء، والانتهاء يعني العودة إلى نقطة البداية.

كمال العلم المعرفة، وكمال المعرفة بداية الجهل الحقيقيّ.

كمال الإيمان: العبادة، وكمال العبادة: التقيّد بالطقوس، وكمال التقيّد بالطقوس: بداية التحجّر والتعصّب، وكمال التعصّب والتحجّر: بداية الإلحاد، وكمال الإلحاد: الشكّ المطلق، وكمال الشكّ المطلق: اليأس، وكمال اليأس: الطريق نحو الموت.

كمال الفلسفة هو اقتناء الحكمة، وكمال اقتناء الحكمة هو بغض الزائلات، وكمال بغض الزائلات هو بداية الابتعاد عن الناس وأفكار الناس وآرائهم، وكمال هذا الابتعاد يكمن في العزلة، وكمال العزلة موت الأنا، وكمال موت الأنا هو بداية الانفتاح على الأزل.

والخلاصة تكمن في معرفة إنّ كلّ كمال واكتمال يصل بالإنسان إلى نقيضه، وكمال الحبّ هو النفور، وكمال النفور هو البغض، وكمال البغض هو القتل. كمال الجوع هو الرغبة في الطعام، وكمال الرغبة في الطعام هو الأكل، وكمال الأكل هو التلذّذ بأنواع المآكل، وكمال التلذّذ بأنواع المآكل يؤدّي إلى المرض، وكمال المرض هو الطريق إلى الموت. فليجتهد الإنسان ما دام يحيا في المحافظة على التوازن لكي يعيش بشكل أفضل ويتجنّب أكبر قدرٍ من الألم، لأنّ كمال الألم هو الثورة وفي الثورة يصبح الجميع ضحايا.

قال هذا ذيفتروس وطلب من الجموع الانصراف.

موت فيرتيبوس

صعدتُ في ذلك اليوم الشديد البرودة إلى الأكروبوليس، وكنتُ أشعر بأنّ شيئًا غريبًا يحصل في العالم. ولم أجد أحدًا من الفلاسفة والناس. فجلستُ وحيدًا أنتظرُ قدوم أحدهم. وطال انتظاري لساعات. كنتُ أشعرُ بالحزن يغمر نفسي، وبأنّ رغبة جامحة تجتاحني، وأنّ فيّ صراخًا يأبى ألاّ أن ينفجر. ماذا أفعل؟

وحيدًا جلستُ أنتظر النهار كلّه ولم يأتِ أحد إلى قلعة الفلسفة. ومع غروب الشمس بدأ المطر ينهمر والبرد يشتدّ، وإذا بدموعي تنهمر وتختلط بحبّات المطر. أريد العودة إلى بيتي ولا أريد، وفي نفسي نـزاع مرير ويأس لا حدود له. أين أنتَ يا بروتوس؟ أين أنتَ يا ذيفتروس؟

وبعدما بلغ اليأس فيّ كلّ مبلغ، وبعد أن فقدتُ الأمل بلقاء أحد هؤلاء الفلاسفة، هممتُ بالرحيل والعودة إلى بيتي. ونهضتُ ومشيتُ وأنا أتسأل لماذا المدينة صامتة إلى هذا الحدّ؟ ما الذي يجري في الأسفل يا ترى؟

وما إن وطئت قدماي عتبة السفح المنحدر من الأكروبوليس، حتّى سمعتُ صوتًا يناديني: قف، تمهّل، عُد. فالتفتُ لأرى في عتمة المغيب مَن هو المنادي، فلم ألمح منه خيالاً، ولكنّي عرفتُ أنّ هذا الصوت هو صوت ذيفتروس العظيم. فعدتُ أدراجي مسرعًا، وقفتُ في الساحة، وإذ بذيفتروس يسير نحوي وإشارات التعب والإرهاق ظاهرة على وجهه المشرق الذي أنار عتمة الغروب.

أخذني الفزع وشملني الجزع، فصرختُ ما بك أيّها الفيلسوف الكبير؟ وماذا حصل؟ لماذا المدينة صامتة وحزينة وكأنّي بالإمبراطوريّة كلّها قد هوتْ؟

أشار إليّ ذيفتروس بيده لكي أجلس. فجلستُ، وأتى هو وجلس بالقرب منّي. ثمّ قال: عزيزي الشابّ الملتهب بعشق الحقيقة، والمأخوذ بجمال العلوم، والمغرم بفلسفة الحقّ، ليلة أمس سقط عامود عظيم من أعمدة الأكروبوليس، وغابتْ شمس من شموس العدل إلى غير عودة. ليلة أمس مات عظيم رجال العدل فيرتيبوس الذي سيّر العدالة في مملكتنا وأجرى القضاء بالحقّ لكثيرين.

لم أكن لأصدّق ما أسمع، وغمر عيني ووجهي سيل من الدموع، ولم أستطع حتّى أن أطرح عليه سؤالاً أو استفسارًا. أمّا هو فاسترسل قائلاً: اسمع، يا بنيّ، لا تنتهي الأحلام الكبيرة برحيل الرجال العظماء، ولا يموت العدل بغياب قضاته، ولا تخمد شموع الأمل بموت الشرفاء.

اسمع، يا بنيّ، هذه الحكمة: رجلان لا يموتان أبدًا.

الأوّل هو ذاك الرجل الذي تأخذه الأحلام الكبيرة وتستهويه المعجزات العظيمة، ولا تقيّده الظروف والأحوال، ولا تأسره العادات والتقاليد، ولا تكبّل يديه شرور البشر، ولا تُخمد لهيب قلبه لامبالاة الأرضيّين، فيسير وراء أحلامه ويجعل من نفسه بطل طروادة، ويضع بذار الأمل في القلوب اليائسة، ويسقي الأرض بعرق عزيمته التي لا تُقهر، ويعلّم الأذكياء من الناس التطلّع نحو الأعالي والقمم. إنّ هذا الرجل لا يموت. فتعلّم أن تسير بهدي الأحلام الكبيرة. إنّ أمبراطوريّتنا هذه لم تصل إلى هذه العظمة إلاّ لأنّ رجالاً قليلون دمجوا أحلامهم بيأس الشعوب، وحوّلوا فتور هذه الشعوب إلى لهب. نعم، يا بنيّ، يخلّد الدهر أصحاب الأحلام الكبيرة.

أمّا الثاني، فهو ذاك الرجل الطفل في قلبه ومحبّته وحنانه. إنّه النوع الثاني من هؤلاء البشر الخالدين. تأخذه الإلهيّات، وتستهويه العلويّات، وينظر حوله فيرى في أتفه الأشياء جمالاً، وفي أسوأ الأحوال آمالاً. يُفرحه كلّ ما في هذا الوجود. إنّه رمز التفاؤل والأمل.

نعم، يا بنيّ، إذا بقي قلب الرجل، مهما كبُر وشاخ، طفلاً، فاعرف أنّ هذا الرجل لم تدنّسه الأهواء، ولم تدمّره الشرور، ولم يغطِّ قلبه قُبح المادّة. إنّ الأطفال لا يعرفون سوى طريق الجمال والبساطة والسلام.

هذا الرجلان لا يمكن إلاّ أن يخلّد اسمهما التاريخ. واليوم بكت الإمبراطوريّة بكلّ ما فيها من حجارة وبشر فيرتيـبوس الحالم والطفل. لقد قادتْ أحلامه مملكتنا نحو الرقيّ والازدهار، وسجّلت لنا طفولته أروع ملحمة للعدل والحقّ. إنّ فيرتيـبوس هو القاضي الوحيد الذي لم يقف ويُطلق حكمًا في أيّ قضيّة رُفعتْ إليه. إنّه الوحيد الذي عرف أن يُصالح الناس لأنّه كان يراهم أطفالاً، وأمام الطفولة لا شيء ينفع أكثر من زرع الأحلام الجميلة بعالم أجمل.

اذهب ونمْ، يا بنيّ، وتعلّم من فيرتيـبوس أن تكون خالدًا.

قال هذا، ومضى.

ولقد تعلّمتُ منه ألاّ أترك اليأس، مهما كان الحزن قويًّا، ليقف سدًّا أمام أحلامي وأمام الطفل الذي في قلبي.



اليأس

بعد وداع القاضي العظيم، عاشت الإمبراطوريّة فترة حزن طويلة وعميقة. وساد الصمت جميع الفلاسفة، وتوقّفت لقاءاتهم في الأكروبوليس، وكأنّ كلّ شيء تجمّد، وكأنّ الزمن توقّف، وكأنّ الحياة صارت في حالة أبد لا زمن له.

وبعد أشهر طويلة من اليأس والإحباط، وقف ذيفتروس العظيم في ساحة الأكروبوليس، وعلى غير انتظار وتوقّع، بدأ يصرخ بالفلاسفة: أين أنتم؟ أين نحن؟ ولم يتجرّأ أحد منهم على الجواب. فقال ذيفتروس: نبحث على الحقيقة، ونفتّش عن الأمل. نرجو الغد، وإذ بالغد يأتي ويرحل، ويأتي الغد الذي بعده، ويرحل بدوره، ونحن واقفون ننتظر الأمل الضائع وراء أوهام الغد الذي لا وجود له إلاّ في مخيّلة مَن لا غد لهم.

الغد هو اليوم، الغد هو الساعة الحاضرة. الغد هو أن نصنع اليوم والآن هذا الغد. لا غد لشعب حجّره اليأس وصلّب قلبه همّ الغد. هبّوا، يا شعب أثينا العظيم، هبّوا. أهكذا نسيتم المعجزات التي صنعها الاسكندر؟ أهكذا تكافئون أرواح سقراط وأفلاطون وأرسطو؟ أهكذا سهل عليكم أن يموت وطننا العظيم ويرزح تحت أحمال وأثقال اليأس؟

فناداه بعض الحاضرين: ماذا تحاول أن تفعل يا ذيفتروس؟ جميع هؤلاء ماتوا. وأنت لست سوى حالم. لن تُعيدهم أحلامكم يا ذيفتروس، ولن تُرجع آمالك الزمن إلى الوراء. والآن تخاطبنا وتخطب فينا بحماسك الذين تعوّدنا عليه. ولكن لا، لا يا ذيفتروس، انتهى زمن الأحلام.

اخترق الحزن قلب ذيفتروس العظيم، وصمت، وجلس يفكّر في كلمة أو خطاب يُعيد الحماس والشجاعة إلى هذه القلوب المحطّمة. وساد سكوت وسكون في أرجاء الأكروبوليس.

وفجأة، وكأنّ روح الأزل حلّت واستقرّت في عقل ذيفتروس، فنهض، ووقف، وتغيّرت ملامح وجهه، فصرخ: نعم، مات الاسكندر، لكنّه لم يمت، لأنه جسده مات، فالاسكندر وغيره كان لا بدّ لهم من أن يعبروا إلى عالم الخلود، الآن ماتت روح الاسكندر، وقد أطفئتم أحلامه الكبرى. الآن مات سقراط وأفلاطون وأرسطو. الآن ماتت جمهوريّة الاسكندر. ولم يبقَ منها سوى معالمه وملامحها التي صنعها بنفسه. ولكنّ الاسكندر لم يرغب يومًا في بناء الحجر، بل كان حلمه أن يولد بدلاً منه مائة اسكندر، بل ألف. أنظروا الشعوب الغريبة، وتعلّموا منها كيف سارت على خُطى الاسكندر. موتوا، أيّها اليائسون، وارحلوا أيّها الخائنون لروح الاسكندر. أمّا أنا، فلم يعد لي مكان بينكم، سأذهب إلى شعب آخر يعرف أن يحلم، ويعرف أن يصنع المعجزات العظام، ويعرف أن يُخلّد للكون ألوف الاسكندر.

قال هذا ذيفتروس العظيم، ثمّ أردف بكلمة أخيرة: إذا أَبَت النفوس الضعيفة أن تنظر نحو الخلود فمصير إمبراطوريّة الاسكندر العظيمة إلى الزوال. ويشهد أولادكم على زوال الحلم. وسيصير العالم إلى الفساد والدمار إلى أن يأتي مَن هو أعظم من الاسكندر فيُعيد زرع الأمل. وأرجو ألاّ يكون حظّه مثل حظّ الاسكندر.

قال ذلك وانهمرتِ الدموع من مقلتيه، ومشى وحيدًا، وكأنّهم لم يسمعوا شيئًا، وكأنّه لم يكن يخاطبهم. هذه هي حال النفوس الضعيفة التي لم تولد للخلود.

غرائب بني البشر

مضتْ أيام عدّة على خطاب ذيفتروس العظيم عن اليأس. وساد الهدوء ساحة الأكروبوليس. وكأنّي بالناس لم يفهموا ما قاله هذا الفيلسوف العظيم. وفي مساء ليلة من نيسان، قرّرتُ الصعود إلى الأكروبوليس وانتظار مجيئه. وهكذا فعلتُ. وبعد طول انتظار، أطلّ الحكيم بوجهه المشرق، وتوجّه نحوي فورًا وكأنّه كان عارفًا بأنّي لا أزال أنتظره.

وبعد وقت غير قصير من الصمت، توجّهتُ نحوه بالسؤال التالي: لماذا أراك يائسًا إلى هذا الحدّ؟ فتنهّد طويلاً، ثمّ سألني: هل عرفتَ يومًا غرائب البشر؟ فقلتُ: لا. فعاد وسألني: هل سمعتَ يومًا بعجائب بني البشر؟ أجبته: أعرفُ شيئًا واحدًا هو أنّي مهما سمعتُ أو رأيتُ فلا قيمة له ولا يساوي شيئًا أمام ما أنتظرُ سماعه منك.

إذ ذاك قال لي: اسمع، يا بني، وافهم جيّدًا. سأخبرُك قليلاً عن غرائب البشر.

غريب أمر بني البشر الذين لا يستحقّون منّا سوى الشفقة والترثّي لأحوالهم. إنّ غرائبهم باتت تفوق العدّ والحصر، وعجائبهم تخطّت حدود المقبول والمعقول عند الحكماء وأصحاب الفلسفة والعلوم.

قلتُ: زدني معرفة.

فقال: ما يثيرُ ألمي، أكثر من أيّ أمر آخر في بني البشر، أنّهم إذا أرادوا القيام بفعل ما أو أمر ما، يسترسلون به إلى ما لا نهاية، وبالتالي تتحوّل عندهم الحسنات إلى سيّئات، والأفراح إلى أتعاب، والأحزان إلى مآسٍ.

فهم إذا أرادوا السهر واللهو، مثلاً، يُعدّون العدّة ويُحضّرون آلات الرقص والطرب، ويدعون المطربين والمغنّين، ومتى جهزَ كلّ شيء، رأيتهم يجلسون كلّ بمفرده، أو كلّ مع صاحبه أو مع عشيقته، وكأنّ لا شيء يجمع بينهم سوى السقف الذي هم تحته.

والأغرب من هذا أنّهم لا يعرفون كيف يكون السهر وكيف يكون اللهو والطرب. فتراهم يندفعون إلى احتساء ألوان المشاريب وأنواعها، وإلى التهام أصناف المآكل وأعدادها، ولا يتوقّفون عن التهامها حتّى تأخذهم التخمة. وبعد التخمة يدبّ فيهم التعب، وتخور قواهم. وبدلاً من الراحة بعد الطعام، يقومون للرقص والطرب، ويستمرّون في الشرب بدون تحفّظ أو اعتدال. وتكون النتيجة أنّ بعضهم يُصاب بالدوّار، وبعضهم الآخر ينطرح أرضًا ويقذف من جوفه القيء، وبعضهم الآخر يخرج عمّا هو مألوف من الأخلاق واللياقة والحشمة. وتكون النتيجة أن ينتهي بهم الأمر، إلى الشجار والعراك، ويتحوّل الفرح إلى حفلة فوضى.

وإذا أرادوا الاجتماع للجلوس حول المائدة والأكل، ينهمكون، قبل أيام وساعات، في إعداد أصناف الطعام وأشكاله المتنوّعة، لساعات طوال، ويُسخّرون نساءهم للخدمة والطهي، وفجأة يجلسون حول المائدة، ويلتهمون كلّ شيء بدقائق معدودة، وكأنّ مَن دعاهم لا يحقّ له أن يجلس ويأكل لقمته بهدوء وتلذّذ، وكأنّ نساءهم ليست موجودة سوى للخدمة والتنظيف والعمل. ويأكلون حتّى تتخم بطونهم، ثمّ يقومون فجأة، قبل أن يجلس على المائدة مَن دعاهم وزوجته. وكأنّي بهم قابعون في حانة عموميّة. غريب أمر بني البشر الذين لا تُسيّرهم سوى غرائز النهم والأكل.

وإذا وُجدوا في مأتم أو موقف حزن، تراهم يسترسلون بالبكاء والنحيب والعويل حتّى تكاد أرواح الأموات تزهـــق لتنهّداتهم، وتكاد أبواب الجحيم تُفتح من جرّاء آهاتهم.

وقبل أن يدفنوا ميتهم، تخور قواهم، وتشحب وجوههم، حتّى توشك أن تقول إنّهم قد ماتوا مع ميتهم. ثمّ لا يلبثون أن يدفنوا ميتهم ويعودوا، وفيما هم عائدون تنقلب الأمور رأسًا على عقب، فتبيّض وجوههم وتنفرج أساريرهم، وكأنّ شيئًا لم يكن، وكأنّهم لم يدفنوا ميتًا، ولم يقفوا في مجلس عزاء. وتنهال عليك أقاويلهم الغبيّة التي يظنّون أنّهم ينطقون بها نطق الفلاسفة بالحكمة، فهذا يقول لك: كلّنا على هذا الطريق. وذاك يقول لك: الدنيا فانية. وآخر يقول لك: لقد سبقَنا ونحن لاحقون به. وفي ما هم ينطقون بهذه الحكم العبثيّة تكون أحوالهم أبعد ما يكون عن الفهم والوعي والإدراك. ويدفنون الميت تلو الآخر، ويا ليت جنازة واحدة تستطيع أن تغيّر من طباعهم وأخلاقهم الهمجيّة. غريب أمر بني البشر.

جميع أمورهم يفعلونها عن غباء وعبث.

وهكذا يفعلون إذا أرادوا الاحتفال بعيد ما أو مناسبة ما، كزواج أو تبوّء منصب أو ولادة طفل، فأنتَ تراهم على عكس ما وجب عليك أن تراهم فيه.

وإذا سألتهم عن الحقائق والمسلّمات، تأتيك أجوبتهم أشدّ غباءً ممّا يمكن للمرء أن يتوقّع.

تقول لهم: المحبّة. يجيبونك: قُبَل وعواطف.

تقول لهم: الألم. يجيبونك: دموع.

تقول لهم: السعادة. يجيبونك: لذّة.

تقول لهم: الفرح. يجيبونك: رقص ولهو.

تقول لهم: العمل. يجيبونك: واجب.

تقول لهم: السياسة. يجيبونك: شرّ.

تقول لهم: الصلاة. يجيبونك: طلب.

تقول لهم: الشوق. يجيبونك: انتظار.

تقول لهم: التسامح. يجيبونك: لكن.

تقول لهم: الحقيقة. يجيبونك: بالنسبة إليك.

وماذا أقول لك، يا بني، أكثر من ذلك؟ تأمّل في غرائب بني البشر. وأبكي معي على أمّة لا تعرف سوء لغة الأبدان المائتة.

قال ذلك ذيفتروس العظيم، ثمّ مضى وتركني وحدي.



أصل الشرّ

بعد أن اسودّت الدنيا في عينيّ، واعتراني اليأس ممّا فعله الناس مع ذيفتروس العظيم، قرّرت أن أبعث إليه برسالة أخبره فيها عمّا يجيش في خلجات قلبي من حزن ويأس وألم. وحاولت جاهدًا أن أخطّ لها رسالة، غير أنّي لم أنجح، بل كانت الكلمات تهرب منّي. أخيرًا طرحتُ عليه هذا السؤال: أرجوك، أيّها الحكيم الكبير، أخبرني شيئًا عن الإنسان.

وانطلقتُ بالرسالة إلى الأكروبوليس، وجلستُ هناك أنتظر قدومه، وما إن وصل حتّى دفعتُ إليه بلفافة الورق، بدون حتّى أن أكلّمه بشيء غير التحيّة. ولكنّي شعرتُ بأنّه هو أيضًا لم يكن يرغب في أيّ كلام.

مضت أيام عدّة، وكنتُ آتِ خلالها إلى حيث كان يجلس، وأنتظره ولم يكن يحضر. أخيرًا، قرّرت عدم المجيء والمكوث في بيتي، وعلّلتُ سبب تأخّر الفيلسوف بموضوع صعوبة الجواب. وكانت المفاجأة الكبرى، ففي إحدى الأمسيات، وبينما كنتُ مستلقٍ أفكّر في هذه الحياة التي نعيشها بدون أن نعرف وندري ونعلم لماذا نحياها، سمعتُ وقعَ أقدام في الخارج، هممتُ سريعًا نحو الباب وفتحته، وإذ بي أجد لفافة ورقة موضوعة على العتبة. إنّه ذيفتروس! ولكن أين اختفى؟ لم أكن لأصدّق فرحتي، لقد وطأت أقدام الحكيم عتبة منـزلي، كم محظوظ أنا.

دعني الآن من هذه الحماقات! هيّا أيّتها الأيدي المسترخية، وافتحي اللفافة واقرأي. وهكذا كان.

عزيزي الشابّ الساعي إلى الحكمة، لا تقرأ بعيون جسدك، بل أنصت إلى كلماتي بمقلتيّ قلبك وذهنك.

يولد الإنسان بريء، ثمّ لا يلبث أن يصير خبيثًا.
يولد الإنسان حنونًا، ثمّ لا يلبث أن يصبح بدون شفقة.
يولد الإنسان كريمًا، ثمّ لا يلبث أن يتحوّل إلى جشع.
يولد الإنسان طاهرًا، ثمّ لا يلبث أن يُؤخذ بالأهواء.
يولد الإنسان سماويًّا، ثمّ لا يلبث أن ينحدر إلى قعر دركات الجحيم.
يولد الإنسان عظيمًا، ثمّ لا يلبث أن يفقد كلّ شعور بألوهيّته.
يولد الإنسان غفورًا، ثمّ لا يلبث أن يسترسل في الأحقاد.
يولد الإنسان... ويولد الإنسان... ثمّ لا يلبث أن يتحوّل، أن يتغيّر، أن يتبدّل، أن يتلوّن، أن يتمرّد، أن يفرغ، أن يقسو، أن يتشرّد، أن ييأس، وأن وأن!

تريد أن تعرف لماذا؟

إليك الجواب، يولد الإنسان "أنتَـويًّا"، ثمّ لا يلبث أن يتحوّل إلى "أنـانيّ"، وليست "الأنا" سوى جهنّم على الأرض. يبدأ الشرّ كلّه "بالأنا"، وعندها وفيها ومعها وبها ينتهي كلّ خير. ولو عرفَ بنو الإنسان أن يفهموا ما معنى أنّنا لسنا سوى "أشباه كيان"، لكانوا جميعًا اختاروا التجرّد والزهد والتخلّي عن الذات.

وإذا كان نبيّ اليهود سليمان قد سبق أن قال لهم: "رأس الحكمة مخافة الله". فأنا أقول لك: "رأس الحكمة مخافة الذات". لأجل ذلك سبق لكبيرنا ومعلّمنا سقراط أن أوصانا قائلاً: "أيّها الإنسان، اعرف ذاتك" ومعنى هذه الحكمة هو التالي: أيّها الإنسان، اعرف نفسك أيّ حثالة أنت طالما أنّك لا تزال تعتقد بأنّ جسدك هو مركز الكون و"أناك" هي سفينة الخلاص. لأجل ذلك، أنت تراهم ييأسون، ويبكون وينوحون ويتخاصـــمون ويتقاتلون ويُدمِّرون ويُدمَّرون، وكلّ واحد منهم يفعل ذلك لأنّه يعتقد

بأنّ الآلهة عبيد يعملون تحت أمرته، أمّا البشر فيظنّون أنّهم حيوانات قد خُلقت لكي يأكلوا لحومها ويستخدموها كأدوات لا عقل لها ولا تصلح إلاّ تفريغ شهواتهم.

ولمّا كان الجميع وكلّ واحد على هذه الحال، لم يبقَ لنا سوى الرحيل.

وإلى اللقاء، يا بنيّ.



القرف

بينما كان جميع مَن في البلاط الإمبراطوري منهمكين في تحضير زفاف سليلة آلهة الخلود الأميرة أناستاسيا، المرشّحة لاعتلاء العرش، على بتراس الرجل الفاضل المؤمن الذي لم يكن أحد يتوقّع له أن يحظى بقلب أميرة الدلال، كان ذيفتروس يُحضّر نفسه للرحيل. كانت نفسه تتمخّض بين نشوة السعادة، من جهة، والقرف من أوضاع المملكة، من جهة أخرى.

وتوالى في نفسه سيل من الأسئلة الصعبة، بل المستحيلة. هل من مستقبل مشرق للإمبراطوريّة؟ هل سيكون مسموحًا للأميرة الصاعدة أن تعتلي العرش؟ هل ستقع الأميرة الحالمة في الغرور وتتخلّى عن الأهداف النبيلة التي نهلتها من عالم الآلهة؟ هل سيأتي مَن يحصد نفسها قبل ساعة الصفر؟

لا، لا، خاطب ذيفتروس نفسه، لن أنتظر لأن أرى انهيار كلّ شيء، يجب عليّ أن أرحل. يجب أن أترك هضبة الفلاسفة وقد ولّى عصر الفلسفة وعَبر أوان الحكمة.

وفي الخارج، كانت العيون شاخصة تنتظر يوم الزفاف، وفرق العزف الملكي تتمرّن على عزف أجمل الألحان، والكهنة يزيّنون هيكل آلهة الخلود ويمزجون العقاقير والمسك والبخور. وكأنّ الزمن كان متوقّفًا طوال شهر قبل الاحتفال.

وفي إحدى الليالي السابقة للاحتفال جاءت زويي وهي إحدى مربّيات الأميرة عند ذيفتروس، وكانت هذه على علاقة متينة به، وتعتبره كأب ومرشد لجميع مَن في الإمبراطوريّة، وطرقت بابه، وتوسّلت إليه أن يخطب في الأمّة يوم الزفاف.

أيّ طلب هو هذا، تساءل العظيم ذيفتروس في قرارة روحه. ونظرًا إلى الاحترام الكبير الذي كان يكنّه لهذه السيّدة الجليلة، قرّر الاستجابة، ولو مرغمًا، إلى طلبها. وراح يفكّر في أنّ هذا الخطاب يجب أن يكون نهاية المطاف.

وفي اليوم المحدّد، وكان ذكرى اعتلاء الاسكندر عرش الإمبراطوريّة، هاجت الجموع وعمّت الفرحة في أوساط البسطاء من عامّة الناس، أولئك الناس الذين أحبّوا أناستاسيا ورأوا فيها الشمس الجديدة العتيدة أن تشرق من جديد في سماء المملكة. وفي الجهة المقابلة، كانت أنظار المعارضين تتأمّل باستغراب ما يحصل.

ومرّ كلّ شيء على خير ما يرام، إلى أن اعتلى ذيفتروس منبر الخطابات وفتح فاه وبدأ بالكلام.

يا بني أمّتي، اليوم يوم الاسكندر، اليوم عرس الآلهة، اليوم يوم الحسم. ها هي الآلهة تقترن بالبشر. اليوم حضرت جميع أرواح الفلاسفة من عالم الخلود لتشهد على اتّحاد سليلة الآلهة بابن هذه المملكة المتواضع والورع. اليوم يعود الصراع القديم ويبدأ بين أراكنة الظلمة وسلاطين النور.

فاعلموا جيّدًا وافهموا، أنتم يا أصحاب الشأن في البلاط الملكي، سيصبح بتراس ملككم عاجلاً أم آجلاً. وباعتلائه العرش سيكتمل تمّزق الإمبراطوريّة التي ستعتبر عارًا عليها أن يُصبح رجل من العامّة سيّدًا مطلقًا عليها.

وبينما كان الحشد مندهشًا من خطاب ذيفتروس، تغيّرت ملامحه، وكأنّي به كان يتلقّى وحيًا من الآلهة، وأكمل قائلاً: يا أميرتي العظيمة، بالأمس بعثتِ إليّ برسالة سألتني فيها عن الخير والشرّ، وطلبتي منّي أن أجيبكِ لماذا يموت هذا شابًّا أو تلك الفتاة في ريعان الصبا؟ وما هو مستقبل أمّة يسود فيها الظلم والطغيان؟

أجيبكِ، أيّتها الملكة الآتية من السماء. أتكونين سليلة الآلهة وتجهلين الجواب على مثل هذه الأسئلة البسيطة؟ فماذا تركتِ للأسئلة الأصعب؟

البشر نوعان. ينحدر نوع منهم من العالم العلويّ، هؤلاء يعيشون على هذه الأرض وفي قلوبهم شوق وحنين إلى عالمهم الحقيقيّ، إنّهم هنا في حالة قرف دائم، يشمئزّون من كلّ شيء، لا يجدون جمالاً في أيّ شيء، ولا يقدرون التمتّع بأيّ ممّا يسمّيه البشر خيرات الأرض. هؤلاء يمضون أيامهم في عذاب مستمرّ، فلا الأكل ينفعهم ولا الشرب، ولا الثياب تبهجهم ولا الحفلات تستأثر بأفئدتهم، ولا العلوم تأخذ بألبابهم، ولا شيء من كلمات البشر تستطيع أن تخترق أرواحهم. هؤلاء، لا شكّ، يُقلقون عالم الآلهة بصراخهم الصامت، إلى أن يرأف بحالهم إله الحياة، وينقلهم من الموت على الأرض إلى الحياة التي انحدروا منها.

أمّا النوع الثاني، فهم أولئك الذين بعد أن انحدروا من العالم العلويّ، بهرتهم مفاتن الأرض الزائلة، وظنّوا بأنّ فيها كلّ الحقيقة والسعادة. هؤلاء لا تلبث دماؤهم المقدّسة أن تتلوّث بمأكولات الأرض ومشروباتها، وتتحوّل أجسادهم المؤلّهة إلى أجداث تسير بدون أرواح بعد أن فارقتهم شذرات الألوهة الساكنة فيهم، وعادت أدراجها إلى عالم السماء. وأمام هذا الفراغ، يأتي سلاطين العالم السفليّ فيسكنون في أجسادهم، ويحوّلونهم إلى آلات شريرة تخدم مملكة الظلمة. ولكونهم يعيشون في خدمة الزائلات، فهم يعيشون طويلاً لكي يمتدّ دورهم في خدمة الشرّ.

وهناك نوع ثالث، يتكوّن من اتّحاد أبناء النوع الأوّل مع أبناء النوع الثاني، فهؤلاء يعيشون صراعًا أبديًّا بين عالم السماء وعالم الظلام، ينجحون ويفشلون، ويفرحون ويتألّمون، يرغبون في العبور ويتمسّكون بأهداب الأرض. ومنهم مَن يسمح لهم الآلهة بأن يعيشوا طويلاً، ومنهم مَن ينقلوهم بحسب ما يكون مستوى شذرات الألوهة كبيرًا فيهم أو صغيرًا.

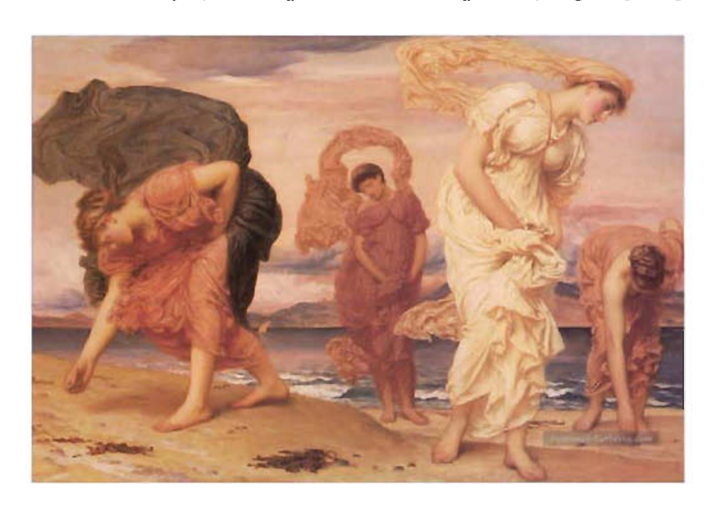
نعم، يا ملكتي، أنظري إلى يديك، والمسيهما، تُدركين بأنّكِ لست من أبناء النوع الثاني. حذارِ يا ابنتي وابنة الآلهة من الانشغال في عالم الظلمة المحيط بكِ.

افرحا اليوم، أيّها العروسان، واستعدّا للمجازفة الكبرى. إنّ حربكما ليست من أجل إعادة مُلك زمنيّ سبق الاسكندر أن قضى شابًّا من أجل تحقيقه، وقد كان ينتمي إلى العالم العلويّ، بل حربكما من أجل إعادة زرع شذرات الألوهة في هذا العالم.

هنيئًا لكما، إذا عرفتما أنّ السماء قد باركتما، واستعدّا لإنجاب أبناء يعملون من أجل إعادة رشّ بذور الآلهة في هذا العالم.

بهذه الكلمات أنهى ذيفتروس العظيم كلمته، أمّا الحضور فلم يفهموا شيئًا ممّا قال.

وفي اليوم التالي ذهبت لعيادته، فرأيته حزينًا جدًّا، ولم يتفوّه بكلمة، بل اكتفى بالقول: سأجلس هناك بعيدًا، فقد قرفت نفسي من كلّ شيء. ولطالما كنتُ ابن الفشل. يجب أن أُعيد إلى جسدي بعض الألوهة الذي فقدته. وإذا أعطتني الآلهة عمرًا أطول، فأرجو أن أرى المملكة تزدهر على عهد سليلة الآلهة أثناسيّا وملكها بتراس.



الرهانات

مضت أيام عدّة بعد انتهاء الزفاف، وبدت الإمبراطوريّة وكأنّها خارجة من حرب طاحنة، فقد توارى جميع الناس عن الأنظار، وكانوا جميعهم يمضون أوقاتهم في سبات عميق طلبًا للراحة بعد العناء والتعب من أسابيع التحضير الطويلة. وكنتُ طبعًا أحد المتوارين عن ساحة الأكروبوليس. غير أنّي كنتُ حتّى أثناء النوم أحلم بذيفتروس، وأتمنّى أن ألتقي به بأسرع وقت ممكن.

وبعد أن عاد الناس إلى أشغالهم ودبّت الحياة من جديد في ربوع المملكة، وجدتني أعدو مسرعًا نحو تلك الهضبة.

كانت خاوية وخالية. أين أنت يا ذيفتروس؟ خاطبته مناجيًا قلبي. لم يستمرّ بحثي طويلاً، لأنّي أدركتُ منذ اللحظة الأولى لوصولي إلى الأكروبوليس أنّي لن أجده.

مضت أيام خمسة، كنتُ خلالها كالضائع، أو كمَن فَقَد أباه أو أمّه أو شخصًا عزيزًا جدًّا على قلبه. ولكنّي لم أكن لأتصوّر لحظة أنّ ذيفتروس ذهب ولن يعود.

ما من إنسان يستطيع أن يتخيّل الأيام الخمسة التي عشتها بعيدًا عنه، لطالما ظننتها دهرًا. أخيرًا، وعندما فقدتُ كلّ أمل بعودته، قرّرت الذهاب بعيدًا، نحو المقابر لكي أناجي أرواح الموتى لعلّهم يجيبونني عن أسئلتي وتساؤلاتي. صراخ هائل كان يدوّي في أعماق كياني. أين أنتَ يا معلّمي؟ أهكذا تطوي صفحة وتتركني وحدي وبمفردي أذوب من وهج آلامي؟ أيا أيّتها الآلهة أنصتي. ماذا يدور في داخلي يا ترى؟ أهو صراع مع قناعاتي أم هو هول المصيبة؟ إنّي ضائع وأشعر بأنّي في غاية الظمأ لحنوّه. أريد أن يُعطيني بلسمًا لجروحي. ولكن، لم يكن أحد يسمع ويجيب، وكأنّي بالآلهة لا تزال منشغلة بعرس سليلة آلهة الخلود.

وفي إحدى الليالي الحالكة بظلمة سلاطين الشرّ وظلامهم، وجدتني أحلم بنفسي في المقبرة الملكيّة، كنتُ واقفًا أمام قبر ذيفتروس العظيم. هل مات ذيفتروس؟ لا لم يمت ولن يموت. كانت هذه الأصوات تنبعث من داخلي، وكأنّي أنا نفسي قد تحوّلت إلى وادي مثوى الأموات. وفجأة سمعتُ صوت ذيفتروس يهزّ حجارة القبر ويخاطبني قائلاً: اسمع يا بني، عندما كان الاسكندر الشابّ منطلقًا وراء أحلامه ليحقّق للأمّة ما لم تكن تحلم فيه البتّة، وليؤسّس لشعبها مملكة عظيمة تتخطّى حدودها البحار، قالوا عنه إنّه مهيمن ومتسلّط وقهّار وعنيد. ذلك الاسكندر الذي لم يفكّر يومًا بنفسه، ولم يعتبر نفسه مرّة ملكًا. نعم، يا بني، لا يمكن أن تتلاقى أحلام الرجال وآمال العظماء مع أشلاء أفكار أناس لم يولدوا على هذه الأرض إلاّ ليكونوا نسيًا منسيًّا. ويا ليتهم فهموا مَن كان هذا الشابّ وماذا كان يبغي؟

لقد قُدّر لهذه المملكة العظيمة أن تنهار بعد رحيله. ومَن يدري ماذا كانت حاله في الأشهر الثمانية الأخيرة قبل وفاته؟ ومَن يعلم أيّ اضطراب وقلق وحتّى جنون كان يعتريه؟

نعم، يا بني، كانت الآلهة تعرف مسبقًا بأنّ هذه المملكة ستنهار، واعلم بأنّ مملكة أخرى ستقوم مكانها بعد وقت غير طويل، وهذه بدورها ستعود وتنهار. وسيولد في هذا العالم أناس يشبهون الاسكندر في أشياء كثيرة، غير أنّهم جميعًا سيكونون ضحايا أبناء العتمة والظلم.

يا بني، يراهن البشر، الذين لا أهداف عندهم، على أشياء كثيرة من حطام هذه الدنيا، ولا يفقهون أنّ لكلّ شيء نهاية. ويعتبرون أمثال الاسكندر أناسًا بدون شرف ولا ضمير،

ويكمن السبب في ذلك في كون الاسكندر وأمثاله لم يولدوا كما يولد أبناء هذا العالم، بل أرسلتهم الآلهة ليكونوا ضحايا الظلم والعتمة، ولكي يكون رحيلهم سببًا إضافيًّا لدمار جميع ممالك العبث والأنانيّة.

يا بني، ماذا تفيدك حياة أمثالي؟ أتريدني هنا من أجل حفنة من حكمة لا تنفع في هذا العالم؟ أم إنّك تريدني هنا من أجل كلمة حنان؟ يشكّل أمثالي خطرًا عليك وعلى حياتك، كما كان أرسطو أستاذ الاسكندر سببًا في جعل أحلامه تعبر حدود هذا الكون، وأدّى ذلك في نهاية المطاف إلى جعل حياة هذا الشابّ جحيمًا مستمرًّا.

يا بني، لن نستطيع أن نغيّر شيئًا في وجود مَن لا نفوس ولا عقول ولا قلوب لهم. لذلك يجب أن نرحل قبل نخسر نحن بدورنا الرهان الأكبر، رهان القليل من الحكمة الذي ورثناه عن أجدادنا. أمّا أنت، فاستمرّ وناضل وجاهد، وستواكبك صلواتي وسترافقك صلوات الكثيرين غيري، وستكون بدون شكّ مشعلاً يُضيء في سماء مملكتنا العظيمة التي لم يناضل أجدادنا في سبيل أن تضمحلّ يومًا، بل لكي تدوم وتبقى إلى الأبد مملكة للحريّة والعدالة والسلام والمحبّة.

بهذه الكلمات ختم ذيفتروس وصيّته لي في ذلك الحلم الغريب. وصحوتُ من حلمي لأرى نفسي وحيدًا بين جدران غرفتي.

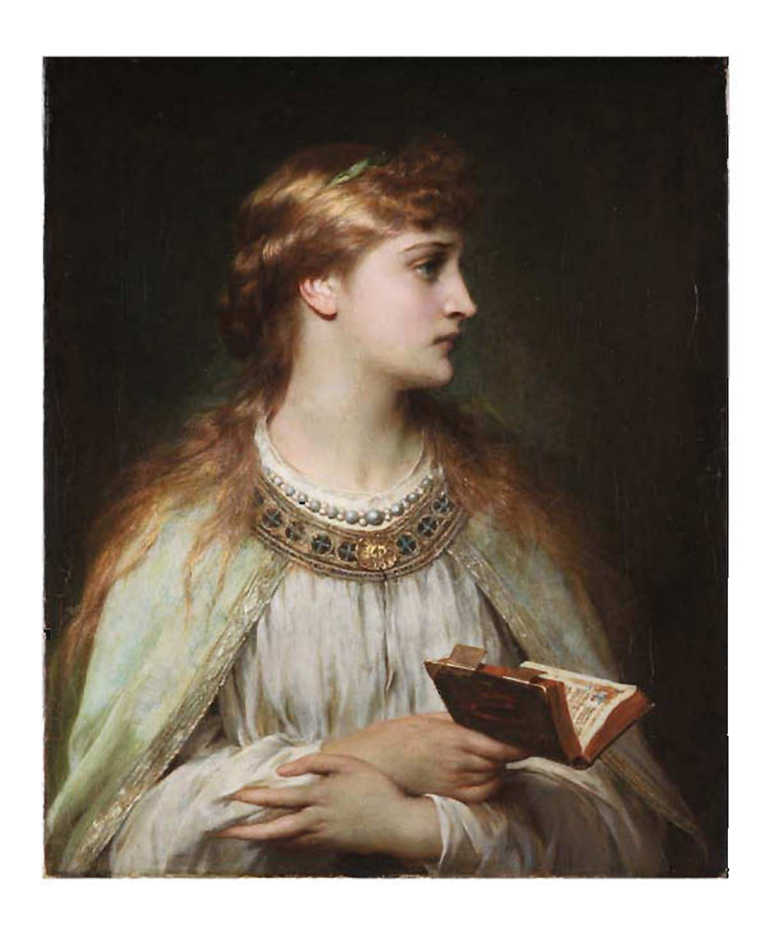


الوصايا

لطالما اشتهر ذيفتروس العظيم بتوصاياته ووصاياه التي كان يتفوّه بها نحو جيل الشباب، مستقبل الأمّة. ومن بين مجموعة وصاياه، أرسل إليّ هذه النُخبة، وطلب منّي أن أُعمّمها على جيل الشباب.

يكمن شرف الرجل في قلب امرأته، فقلب المرأة الحنون يُنبت أزهار المجد، ويدفع رجلها نحو آفاق لا تُحَدّ. والمرأة الحنون تولّد في نفس رجلها آمالاً لا تقهرها الآلام، ولا تُضعفها صعوبات. المرأة الحنون سيّدة تصنع الانتصارات. ولدت المرأة لتكون حنونًا. فإذا كانت فتاة يافعة، جذبت نحوها رجالات الفكر، ومعلّمي الحكمة. وبحنانها تعرف أن تجعلهم يُلقّنونها أسرار الحياة، ومعالم الغيب. فتكبر هي، وتكبر فيها روح الحكمة. وإذا كانت صبيّة في ربيع العمر، وتعرف أن تنطق بأقوال الحكمة، تجذب نحوها قلوب عظماء القوم. وإذا أرادت الزواج، فهي تعرف أن تختار رجلاً من ذوي الشهامة والكرامة. فتختار رجلاً يكمن شرفه في تواضعه، ويستقر سموّه في بساطته، وتظهر حكمته في سهولة فهمه، ويتجلّى مجده في مثابرته على العمل، ويظهر كِبَر نفسه في ملبسه ومأكله. فيلدان أبناءً أقلّ ما يمكن أن يُقال عنهم، إنّهم أبناء الآلهة. وبماذا يُعرف الرجل؟ إنّه يُعرف فقط من خلال شهامته. لا يتردّد الشهم في اختيار جميع الأشياء. ويختار القناعة كنـزًا، والبساطة تاجًا، واللطف شريعة، والصبر سبيل حياة. لا يغويه شيء في الحياة، ولا يستطيع أيّ إغراء من أيّ نوع أن يجتذب قلبه. إنّه يضع هدفًا واحدًا لحياته: شرف الرجل في ما يُعطيه. لا يبحث عن شيء في هذه الحياة سوى عن المرأة الحنون. ومتى وجدها، ضحّى بكلّ شيء في سبيل الزواج منها. يا بني، يُعرف الرجل الصالح من شهامته.

والمرأة الصالحة من حنانها. ابحث عن الرجل الشهم واتّخذه صديقًا. وفتّش عن المرأة الحنون وابني إمبراطوريّة لا بيتًا وحسب. شعاران لا تنساهما، بل اكتبهما على لوح قلبك. إذا كنتَ رجلاً، فكن شهمًا. وإذا كنتِ امرأة، فكوني حنونًا. هذا هو السبيل الأوّل لبناء عالم أفضل. وإلى اللقاء في وصيّة جديدة.



الوصيّة الثانية

قال ذيفتروس: كان لأحد الملوك ابنة لم يعرف التاريخ فتاة بحُسنها وجمالها. وكانت هذه الفتاة، منذ طفولتها آية سماويّة عجيبة تُبهر عيون جميع الذين ينظرون إليها، حتّى إنّ حكماء المملكة طالما طلبوا من الملك أن يُبعدها عن عيون الناس، ويضعها في قصر خاصّ، ويخصّص لها أعظم المعلّمين. وكان الملك، لشدّة تعلّقه بها وحبّه لها، لا يفكّر بشيء في المملكة إلاّ وتكون هي محوره. فكان كلّما أراد أن يبني قصرًا أو مدينة أو ملعبًا أو أيّ شيء آخر، يُطلق عليه اسمها.

وكان يُنفق الكثير من المال من أجل أن يأتي ما يبنيه غاية في الروعة والأبّهة. ومنذ طفولتها، خصّص لتعليمها أعظم الأساتذة وأكبر الفلاسفة. ولطالما أصدر أوامره لجميع مَن في البلاط الملكي وخارجه ليُقدّموا لها الولاء والطاعة. وأن يُلبّوا جميع مطالبها بدون الرجوع إليها. وكان هو بنفسه يهتمّ بأكلها وشربها وثيابها، ويُدلّلها بشكل منقطع النظير حتّى إنّ الشمس نفسها كانت تغار ممّا حازت عليه من اهتمام ودلال. فنمتَ الأميرة وكبُرت بعزّ وجاهٍ وعلم وثقافة. وكانت تزداد جمالاً وتألّقًا، يومًا بعد يوم، لدرجة أنّ الورود عينها كانت تخجل منها عندما تمرّ بقربها. وصار أسلوب تعليمها مثالاً ونمطًا يتبعه كلّ أب مع أولاده.

وبعد سنوات عديدة من التعب والسهر والبذل والدلال. أراد الملك أن يمتحن ابنته، ليرى إذا كانت فعلاً قد وصلت إلى ما كان يصبو أن تصل إليه من علم وأخلاق وذوق وأدب. فاستقدم كبير الحكماء وسأله قائلاً: قل لي، ما هو السبيل لكي أعرف ما توصّلت إليه ابنتي من حكمة وعلم وأدب وأخلاق؟ فأجابه كبير الفلاسفة قائلاً: لا سبيل لك سوى

أن تُرسلها إلى الحرب، وتضعها على رأس جيش كبير مع أفضل قوّادك. عندئذ تعرف معدنها. صمت الملك مستغربًا من جواب الحكيم، ولكنّه لشدّة ثقته به، اقتنع بأنّ هذا الاختبار هو الوحيد الذي سيعرف من خلاله عظمة ابنته أو ضعفها. فدعا أشرس قوّاده طبعًا، وأشدّهم بأسًا، وأخبره عن موضوع الاختبار، وطلب منه أن يُعامل ابنته معاملته لسائر الجند الذين تحت أمرته، ولكنّه أخبره بأنّها هي ستكون على رأس الجيش، وهي التي ستصدر الأوامر. وحذّره قائلاً: إياكم أن تنفّذوا أمرًا تشكّون في صوابيّته. ودعا الملك ابنته، وكلّمها قائلاً: تعرفين يا ابنتي بأنّي أصبحتُ متقدّمًا في السنّ ولا أستطيع أن أكون على رأس الجيش. وفي الواقع، إنّ جيشًا كبيرًا حشده أعداؤنا، وانطلقوا، وها هم في طريقهم نحونا، ولستُ أستطيع الاتّكال على القادة، وأخشى أن يغرَّ الشرّ أحدهم، فتحصل خيانة ويحصل انقلاب واستيلاء على الحكم، ويكون مصيرنا الموت أو السجن. ارتجفت الأميرة خوفًا وهلعًا لدى سماعها هذا الكلام، وشعرت بأنّها أمام مسؤوليّة تفوقها عمرًا وخبرة. ولكنّها صمتت، وبعد تفكير طويلاً، أجابت والدها: لقد تعبت عليّ وربّيتني أفضل تربية لكي أخلفك على العرش، والآن، حان الوقت لكي أبدأ مهمّتي. باركني يا أبي، وأرجو أن أكون عن حُسن ثقتك بي. أجابها الملك: إنّي فخور بك يا ابنتي، فلتباركك الآلهة. إذهبي إلى كبير القادة، وهو سيرشدك إلى ما يجب فعله. ولكن اعلمي بأنّ الجيش كلّه تحت إمرتك، وسيُنفّذ جميع القوّاد أوامرك. وكان الملك قد أوعز إلى كبير القوّاد أن يُعطيها حصانًا غير مروّض.

وفي الوقت المحدَّد، لبست الأميرة ثياب الحرب، وجمعت الجيش، وخاطبته قائلة: أعرف بأنّكم طالما جلبتم النصر لمملكتنا العظيمة، وهذه المرّة أيضًا سيكون النصر حليفنا. فلننطلق بدون خوف، ولا تردّد. سأكون على رأس الجيش، وأرجو من الجميع أن ينفّذوا أوامر الملك، وأنا سأُعطي الأوامر بالقتال أو التراجع. فلننطلق ولتباركنـــا الآلهة.

وانطلق الجميع على رأسهم الأميرة. ومن أوّل الطريق بدأت المشاكل، وأرهق الحصان غير المروّض الأميرة، فتعبت، ولكنّها لم تتعوّد على التراجع والانهزام. وكانت المفاجأة الثانية، عندما تظاهر بعض القادة بتحضير مؤامرة وانقلاب. فما كان من الأميرة إلاّ أن استلّت سيفها وضربت أحد القادة، فوقع أرضًا وبدأ الدم يجري من صدره. ارتعش الجميع أمام هول الكارثة، إذ قد حصل ما لم يكن في الحُسبان. واستشاط كبير القادة غضبًا، وبدأ يشتم الأميرة، وأعطى الأوامر بالانسحاب. وهنا لم يكن باستطاعة هذه الفتاة إلاّ الانصياع إلى أوامر كبير القادة. وعاد الجيش أدراجه. وكانت الأميرة تبكي طول الطريق، وتندب حظّها، وتفكّر في ما ستقوله لأبيها عن الهزيمة قبل البدء، والمؤامرة. وبالفعل عاد الجميع إلى المدينة، وكان الملك ينتظرهم بفارغ الصبر. وفي ما كانت تخلع ثيابها، ذهب كبير القوّاد إلى الملك، وأخبره بما جرى. وحضرت الأميرة بعد ذلك، ومثلت بين يدي والدها، وقبل أن تتفوّه بكلمة، قال لها: لي سنوات أحكم فيها هذه الإمبراطوريّة، وقد أكسبتني الحياة خبرة طويلة في أمور الناس والحرب، والآن اسمعي ما سأقوله لك: أهنّئك أوّلاً على شجاعتك وشهامتك. ولكن يجب عليك أن تتعلّمي هذه الوصايا وتحفظيها: لا تقاتلي عدوّك أبدًا وهو ضعيف. لأنّك تكونين جبانة، والجبان ينتظر أن يكون خصمه ضعيفًا ليُقاتله. لا تحكمي على خائن وإن ثبتت خيانته، فربّما عاد وندم على فعلته. ولا يأخذك ظاهر الأمور، ويخدعك الخارج، فلا أحد يعرف الداخل إلاّ الآلهة. والآن كيف تريدين منّي أن أسلّمك قيادة الجيش والمملكة ويلزمك الكثير من العلم، وأوّل علم هو التروّي والانتظار والصبر. ستذهبين إلى الحرب، وستضعين يدك بيد المشاكس والمتمرّد والعنيف والمتصلّب والحسود والقهّار، وإذا كنت لا تستطيعين أن تصنعي أصدقاءً. وإذا لم تكوني قادرة ذلك، فستكون الهزيمة دومًا على مقربة منك. لا أحد شرير إذا ما غمرناه بمحبّتنا وعطفنا. قال هذا الملك وغمر ابنته بكلّ حنان.

الوصيّة الثالثة

قال ذيفتروس: رُزقَ ملك عظيم بخمسة أبناء، امتازوا جميعهم بالرزانة وحُسن الأخلاق والكرم والجود. وتميّز الأوسط بينهم بشهامة قلّ نظيرها بين جميع شباب المملكة. فكان هو وحده بين سائر إخوته معتمدًا على ذاته ومريحًا لوالده ومساعدًا لإخوته في كلّ شيء. وعندما بدأ الأبناء يكبرون وينضجون، دعاهم الملك وقال لهم: يا أبنائي الأحبّاء، أنتم تعرفون رغبتي، منذ أن كنتم أطفالاً، فقد سعيتُ جهدي إلى أن يتخصّص كلّ واحد منكم في مجال معيّن من مجالات الحياة. فعلّمتك يا كاستوس مهنة الحرب، ولقّنتك يا يوسيفوس فنّ البناء، ودرّبتك يا بيرلوس على التجارة، وعلّمتك يا أنانستاسيوس الفلسفة، أمّا أنت يا جيميلّوس فقد رفضت وحدك أن تنصاع إلى توجيهاتي، وقرّرت أن تخطّ طريقك بنفسك. وقبلتُ معك أن تسير في طريقك، وبالفعل لم يخب ظنّي فيك، وكنتُ أراك تتقدّم وتنجح وتعتمد على نفسك، في حين كان إخوتك، على الرغم من دعمي لهم، يتعثّرون في طرقهم. فقرّرت، بعد طول تفكير، أن أمنحك العرش من بعدي. ودعوتك مرارًا وقلتُ لك: أنت يا ابني ستكون رجلاً عظيم الشأن، فانتبه إلى أنّي أفكّر فيك كملك من بعدي، وستكون خير ملك لجميع المستضعفين والفقراء ومنبوذي المجتمع. وشعرتُ بأنّ وصيّتي هذه قد وجدت أثرها في نفسك. وعلى هذا الأساس، بدأتُ أُحضّر كلّ شيء من أجلك.

وقلتُ لك: لا تنسَ المبادئ يومًا يا بني. وشئت أن تقع في غرام الأميرة أثناسيا سليلة الآلهة، التي تخشاها جميع الأمم والشعوب، وتحسب لها كلّ حساب. وسعيتُ معك إلى أن تتزوّج منها، بعد أن أخبرتُك عن دلالها واعتزازها بنفسها، وشموخها وكرم أخلاقها.

وهكذا كان، وعلى غير توقّع منّي استطعتَ أن تجذب قلبها وتخلب فؤادها، فأحبّتك واختارتك زوجًا، واجتمعتما معًا على المبادئ عينها، أي الاتكال على الذات، وبناء إمبراطوريّة يسودها العدل والسلام والمحبّة والرفاه. فقلتُ في نفسي، أيّ شيخوخة مكرّمة ستكون لي بعد طول جهاد! أين أصبحت عهودك في توحيد مقاطعات الإمبراطوريّة؟ وأين مشروع مدينة "أغابي بوليس" التي وعدتني ببنائها؟ إنّي أراك سائرًا في طريقك وحدك، وأخشى أن يضيع أملي فيك. ها أنا أكلّمك أمام إخوتك، وأريدكم جميعًا أن تسمعوا وصيّتي. إذا اعتمدت على نفسك لتصنع مستقبلك، فلا تقل في نفسك: ليصنع غيري مستقبله بنفسه كما فعلتُ أنا. فلو فكّر الاسكندر العظيم على هذا النحو، لما كنّا اليوم نعيش في هذه الإمبراطوريّة العظيمة. واعلم يقينًا، بأنّ مَن يستطيع أن يبني مستقبله بنفسه، فهذا رجل باركته الآلهة ليصنع للأمم مستقبلاً أفضل. واعلم أيضًا بأنّ الشهامة تكمن في طلب المعالي، وفي السير على خطى العظماء، وفي جمع الشمل وبناء الجسور. الربح صعب، والخسارة سهلة. الجمع صعب، والفقدان سهل. البناء متعب، والخراب سهل. عرفتك شهمًا واخترتك لتحمل المشعل. ولا ينال لقب العظيم إلاّ مَن يصنع المستحيل، ويُسطّر التاريخ، ولو لم أثق بك، لما كنتُ أقول لك هذه الكلمات. سهل جدًّا أن تكون ابن ملك، أمّا الصعب والمستحيل فأن تتحلّى بصفات الملك. وحدهم أبناء الملوك الحقيقيّون يستطيعون أن يخلّصوا العالم، وأن يبنوا مدن السلام... وإذا عشتَ طويلاً... فستشاهد بعينك كيف يفتقر الملوك ليغنوا الفقراء، وكيف يجوعون ليُطعموا الجياع، وكيف يموتون ليوحّدوا أرجاء المملكة. هذه وصيّتي "تقدّم".

الوصيّة الرابعة

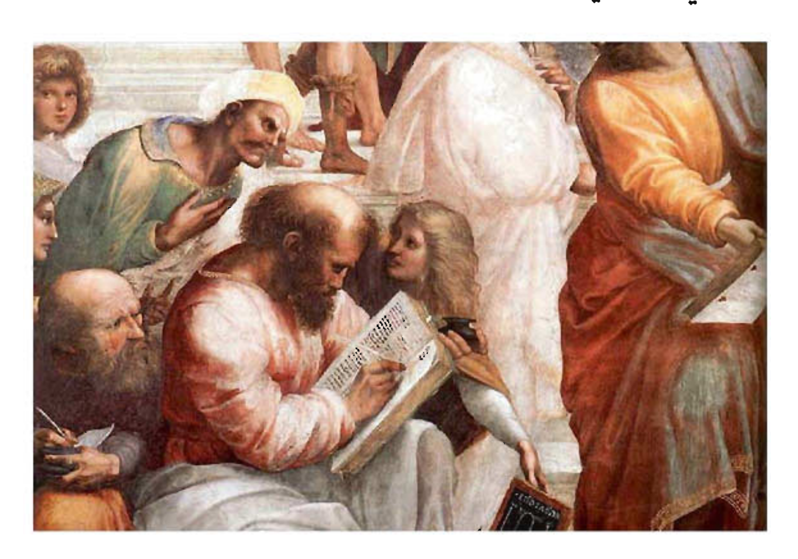
قال ذيفتروس العظيم: بينما كنتُ أسيرُ في أزقّة المدينة ليلاً، شعرت بوقع أقدام تتبعني، وطرقَ مسمعي صوتٌ خافت لامرأة في منتصف العمر. التفتُّ ورائي ونظرتُ، وبالفعل رأيتُ امرأة تُشيرُ إليّ بيدها وكأنّها تطلبُ منّي التوقّف. توقّفتُ وإذ بها تُهرولُ نحوي. كانَ وجهُها أشبه بوجه طفل وجدَ فلسًا مرميًّا على الأرض، أو أُعطي دمية ليلهو بها، أو قُدّمتْ له قطعة من الحلوى. وسألتني، ويا ليتها لم تفعل! سألتني: أتعرفني؟ وقبل أن أجيبها بنعم أو كلاّ، أكملتْ: في مثل هذا اليوم أنجبتُ طفلتي مونا. وأعرف أنّك تعرفُها وتراها. لقد هجرّها بؤس هذه المدينة وشقاء أهلها وأبعدها عنّي ، ولستُ أسألُك شيئًا آخر سوى: هل هي بخير؟ هل هي سعيدة؟ قل لي، طمئنّي، هل هي بخير! لم أكد أفتحُ فمي وأُجيب: إنّها بخير! حتّى رأيتُها فعلاً تطيرُ فرحًا وتعود أدراجها من حيث أتت، وتُسرعُ ليعود إليّ صوتُها موصيًا إياي: احمل لها شوقي وسلامي ومحبّتي. وتوارتْ عن أنظاري. فركتُ عينيّ بيديّ لكي أتيقّن من أنّي لستُ في حلم، وأكملتُ بدوري طريقي. لستُ أتذكّرُ كيف وصلتُ إلى كوخي، وأيّ طريق سلكت. جلَّ ما أستفيقُ عليه أنّي وجدتُ نفسي مُلقىً على الأرض والدموع تسيلُ من عينيّ سيل شلاّلات سيول الشتاء. لم أستطع التفكير بشيء سوى بذلك المشهد الأبدي. وشاءتِ الآلهة أن أمُرَّ بمعبد الأكروبوليس للقاء صديقي بروتوس. وإذ بعيني تلمحُ رسمَ تلك الابنة الغائبة مونا. وجدتُها هناك تتضرّع إلى الآلهة، وتحرقُ العطور. فتوجّهتُ نحوها الصبيّة وسألتها: بحقّ الآلهة، يا ابنتي، أجيبيني: أيّ صلاة ترفعين؟ وأيّة عطور تُقدّمين؟ وقبلَ أن تُجيبَ الفتاة بكلمة، رأيتُ الدموع تنسابُ من عينيها. وإذا بصوت كلّ من أخيلس والاسكندر الكبير يهزّ حجارة المعبد: لولا رضى أمّي لما كان التاريخ سجّل اسمي! عندئذ تركتُ الصبيّة ومشيت. وعندما

رآني بروتوس مُقبلاً نحوه قال: يسألون بركات الآلهة ويطلبون رضاهم، في حين إنّهم لا يعرفون ماذا يفعلون. قلوبٌ لم تُخلق لتحيا، وأفئدةٌ من صخور النسيان، وأوجاعٌ بالية من عهد الفراعنة، وأجيالٌ تُدمّرُ أجيالاً. هؤلاء هم أبناء هذا الجيل. نهشةٌ واحدة ويضيع الجمال. إذا القلوب نهشتها أسنان الواقع، يزولُ الحبُّ وتحترقُ الآمال. وكالفاكهة متى قُطعت يبدأُ فيها الاهتراء، هكذا هم أولئك السكارى بالواقع والقابعون في غياهب النسيان، لن يُسجّل لهم التاريخ سوى ملامح الذلّ والعار. وأردفَ ذيفتروس قائلاً: إذا كنتَ صغيرًا فحذارِ من أن تكبُر، لأنّك كالفاكهة متى نضجت تُقطعُ وتُنهش ويدبّ فيك العفن، وتنسى كلّ شيء ولا تعود تبالي إلاّ بنفسك المهترئة. ويا لها من نهاية عندما يزول الجمال. في الحبّ وحده يستمرّ الجمال ويخلد.

الوصيّة الخامسة

قال ذيفتروس العظيم: لطالما أحبّت الأميرة أثناسيّا عظائم الأمور، وشُغفتْ بالوصول إلى إنجاز صعاب الأعمال. ومن جملة ما أحبّت الصيد ومطاردة الحيوانات الضارية. وفي أحد الأيام، قرّرت الذهاب في رحلة صيد طويلة وبعيدة إلى بلاد أفريقيا حيث الوحوش المفترسة والزواحف القاتلة. وفي اليوم المعيّن، حضّرت عدّتها، وأخذت مرافقيها، وانطلقت مسافة سفر عشرين يومًا، إلى أن وصلت إلى مجاهل تلك البلاد. لم تنسَ طبعًا أن تأخذ معها علماء يعرفون تلك الأرض ويُلمّون بأحوال تلك البلاد. وبعد استراحة يومين من مشقّة السفر، انطلقت وفريقها متوجّهة نحو الوديان العميقة حيث معاقل تلك الضواري، وكانت في قرارة ذاتها تريد أن تُبرهن لأبيها على أنّها كبُرت وأصبحت قادرة على صنع المستحيلات. وبالفعل بدأت تطارد الغزلان والطيور على أنواعها، غير أنّها لم ترغب البتّة في اصطياد أيٍّ منها، بل كانت تريد اصطياد فهد أو نمر أو أيّ حيوان آخر من أنواع هذه الضواري، لتقدّمه إلى أبيها كدليل على نضجها واكتمال نموّها. ولم تنتظر طويلاً ليُرسل لها القَدَر ما انتظرته بفارغ الصبر. ورأت في السفح مجموعة من الأسود المنكبّة على التهام فريستها. فقالت لمرافقيها: إنّه الوقت المناسب، هلمّوا بنا ننقضّ على هذه الأسود ونصطاد منها بدل الواحد اثنين وثلاثة. غير أنّ أحد مرافقيها أجابها: يا أميرتي لا أظنّك تُجازفين وتُقدمين على مثل هذا العمل، فهذه الحيوانات وإن كانت تبدو لك هادئة بعد الشبع، إلاّ أنّها إذا شعرت بالخطر ولو لبرهة، تستعيد نشاطها وتهاجمنا وتهجم علينا بلمح بصر وطرفة عين، حتّى إنّنا قبل أن نتمكّن من تصويب سهامنا نحوها نكون قد أصبحنا بين فكّيها. لكنّ الأميرة المندفعة كعادتها أصـــرّت على

خوض هذه التجربة، ولم تُصغِ إلى تحذير مرافقها. وانطلقت غاضبة وحدها بدون أن تطلب من أحد مرافقتها. وما هي إلاّ ثوان معدودة حتّى تأهّبت الأسود وبدأت تزأر وتستعدّ لملاقاة فريستها الجديدة. غير أنّ أثناسيا، لم تنتبه إلى شيء، بل أكملت مسرعة. وأمام الخطر الداهم، جفل جوادها وبدأ ينتفض بحيث إنّها لم تعد تقوى على لجمه، بل خرج عن سيطرتها، وإذ أصرّت، طرحها أرضًا وقفل عائدًا أدراجه. وما هي إلاّ برهة واحدة حتّى وجدت نفسها بين أنياب الأسود. جميل هو اندفاعها، لكنّ الحكمة تقتضي معرفة الذات وميولها. في نفس كلّ واحد منّا يتصارع الاندفاع مع الرغبات القويّة ومع الشعور بالقوّة والعزم. وما هذه الأسود الهادئة ثمّ المفترسة سوى رغباتنا التي تحتاج دومًا إلى الإمساك بها، وإلى ضبطها لكي تبقى نفوسنا مثل الأزهار تزهو، فيقترب الجميع منّا، وبجمال أرواحنا نستطيع تليين القلوب المتحجّرة. قال الملك لابنته: هذا هو تفسير حلمك يا ابنتي وعمري. وضمّها إلى صدره وغمرها بحنان.



الصراع الداخلي

في أحد الأيام، وبينما كان ذيفتروس العظيم غارقًا في صومعته ومنعزلاً عن الناس، دقّت بابه صبيّة يافعة كانت سمات الألم والحزن مرتسمة على وجهها. وفهم العظيم أنّ من واجبه قبولها والاستماع إليها.

قل لي شيئًا! سألته، لأنّني إذا بدأتُ بطرح الأسئلة عليك، فلن أنتهي أبدًا. نظرَ إليها كبير الحكماء بمحبّة وحنان، وقال: يولد الحبّ من الافتقار إلى اللذّة، وينمو في بيت النفوس التي تأبى الانصياع إلى الواقع.

الحبّ، يا ابنتي، ليس عاطفة كما يزعم بعض المفكّرين. الحبّ نفحة تصدر عن دفء العينين، إنّه قبسٌ ينبثق عن حرارة اليدين، وأريج يفوح من جمال الروح.

الحبّ صراع بين صوت القلب النابض وصراخ الألم المدوّي. الحبّ سفرٌ لا يعرف التوقّف في مكان. الحبّ هدوء يتخطّى صخب الأجساد، ويعلو على عويل الرغبات حيث يشتدّ الألم من "لا أعرف كيف وماذا" هنا يبدأ الحبّ، وعندما تضيع الأقوال المتكرّرة يحضر الحبّ "الله"

الحبّ هو ذلك الشقاء غير المؤلم، وتلك الـ "آه" غير المُحرقة. الحبّ لا يعرف "قَبَل وبعد"، ولا يفهم "الأمس واليوم".وعندما تناجين الآلهة بصمت في الأعماق يخترق صمتك هذا لجج السماء، وتدمع الآلهة من شدّة الطرب، لأنّ الآلهة لا تعرف الكلمات.

عندما يولد فيك الحنين إلى ما وراء الأقدار المزعومة، عندئذ يولد فيك حبّ لا يُفسّر نوعه ولا مضمونه. وتكون لغته مختلفة عن جميع أنواع لغات البشر.

يكون ذلك الحبّ صراعًا من "لا ومتى وكيف" عن قصّة قلوب غير مصنوعة من لحم، إنّما من مزيج ماساتِ دموعِ الآلهة التي طالما بكت وتبكي حال البشر.

يا ابنتي، عندما يشتدّ فيك وقع السؤال، وتحمّر عيناك من حُرقة الأشجان،

لا تخافي ولا تيأسي، فأنت قد بدأتِ تسيرين في طريق المعرفة. تلك المعرفة غير المكتوبة بحروف منطقنا غير المنطقيّ، بل هي معرفة "الـ ما بعد" عن ولأجل "الأمل". وما هو الأمل؟

إنّه الشعور بعدم الارتباط بما هو أرضيّ. الأمل ابن الحبّ. وما أصعب الوصول إلى كليهما.

سيري، يا ابنتي، ما دام نور الشمس لا يزال يُشرق على عالم البشر، ولا تنسي أنّ الشمس حفيدة الحبّ.

وكفّي عن طرح السؤال لأنّك تقبعين هناك في صراخ أمّ الآلهة.

قال هذا ذيفتروس العظيم، وودّع الصبيّة، فذهبت بسلام.



عيد ميلاد الأميرة

عندما كان ذيفتروس العظيم لا يزال قلقًا ومتألّمًا من الوضع الذي صارت إليه أحوال المملكة، مَثَل أمام مجلس الأعيان، وروى على مسامع الأعضاء هذه القصّة.

سبق لي، قال ذيفتروس، أن كلّمت الجموع عن الأميرة أثناسيّا سليلة المجد وحفيدة الآلهة، واليوم أودّ أن أقصّ عليكم هذه القصّة لعلّكم تجدون فيها ما ينفع شعبنا ومملكتنا.

كان الإمبراطور الشيخ الجليل كالوس، يحبّ ابنته الأميرة أثناسيّا محبّة لم يعرف التاريخ مثيلاً لها. وكان قد تعوّد أن يصنع لها كلّ سنة عيدًا كبيرًا جدًّا لمناسبة عيد ميلادها. وبعد أن تزوّجت، قرّر أن يكون عيد ميلادها الأوّل من بعد زواجها مختلفًا تمامًا عن جميع الأعياد التي سبق أن احتفل لها بها.

فدعاها وزوجها، مساء أحد الأيام، وسألها قائلاً: يا ابنتي وروحي، أريد أن يكون عيد ميلادك هذه السنة عيدًا ملكيًّا لم يسبق لملك أن احتفل به لابنته. أريد أن أدعو إليه الملوك والسفراء ومجالس الأعيان وجميع أصدقائك وصديقاتك. ولكنّي كما عوّدتكِ، أتيتُ لأسألكِ كيف تريدين أن يكون الحفل، ومَن تريدين أن يشترك فيه، وما هي الهديّة التي ترغبين في الحصول عليها؟

لم تفكّر الأميرة ولو لبرهة، وكانت وكأنّها قد سبقت أن قرّرت ما تُريده. لا أريد عيدًا ولا احتفالات ولا أحدًا، أجابته بحزم، ولكنّك يا أبي العظيم، إذا كنتَ تريد أن تراني سعيدة، أرجو أن تلبّي طلبي وتجلب لي الهديّة التي أريد.

تعجّب الملك جدًّا، واستغرب طلبها، ونظر إلى زوجها، فقرأ في عينه أنّه يرغب بتنفيذ ما تريده زوجه التي يعشقها. وإذ فهم الملك أنّ الأمر منتهٍ، قال لابنته: ما هي الهديّة التي تريدين يا ابنتي.

أخذت أثناسيا بيد والدها، وأخرجته إلى ساحة البلاط، وقالت له: أنظر، يا أبي إلى السماء، أترى تلك النجمة التي تلمع في جلَد السماء، أريدها هديّة لي في عيد ميلادي، ولا أريد غيرها.

صُعق الملك من طلب الأميرة، وصمت لحظات. ثمّ عاد ودخل معها، وجلس وتنهّد، وقال: فليكن لكِ يا حبيبتي ما تريدين. وخرج وتركهما، وسمات الحزن ظاهرة على وجهه.

وأمضى الملك تلك الليلة حائرًا مفكّرًا. وكان يخاطب نفسه قائلاً: ماذا عساي أن أصنع؟ ومن أين أُحضر لها تلك النجمة. وعندما تعب من التفكير، وعرف أنّ ما طلبته ابنته ليس سوى المستحيل. وبعد أن استغرب من نفسه كيف وعدها بتنفيذ طلبها، أوشكَ على أن يفقد صوابه، وخرج للتمشّي في حديقة البلاط.

وبينما كان مستغرقًا في التفكير، شاءت الآلهة أن يستيقظ كبير حكماء البلاط، وشاءت أيضًا أن يخرج إلى الشرفة ليرى الملك مستيقظًا ساهرًا. نزل الحكيم بدون تردّد، وكان يفكّر في ذاته: لا شكّ بأنّ أمرًا جللاً يُقلق مولاي ويحرم أجفانه النوم.

وما إن وصل حتّى شعر الملك ببعض من الراحة. فسأله الحكيم: ما بك يا سيّدي؟ آه، بل آهات، أجاب الملك، وأخبره تفاصيل طلب الأميرة.

ضحك كبير الحكماء، وقال للملك: أهذا ما يُقلقك؟ إنّ الأمر بسيط جدًّا. عد، يا سيّدي إلى فراشك، واترك أمر الأميرة والنجمة لي، وغدًا صباحًا أُنهي لك الموضوع. هدأ الملك، وشكر الحكيم، وذهب كلاهما إلى النوم.

في صباح الغد، مَثَل الحكيم أمام الأميرة، وبعد أن حيّاها، أخبرها بأنّ الملك أوكل إليه أمر إحضار النجمة. ثمّ قال لها: أيّتها الأميرة، سيكون لكِ ما تشائين، ولكنّي أريدكِ أوّلاً أن تعطيني الجواب على سؤال بسيط. أجابته: نعم، يا سيّدي، إنّي مستعدّة.

ما هي المستحيلات الخمسة، يا ابنتي وأميرتي؟ إنّي أعطيك مهلة أسبوع بأكمله لكي تجيبي على السؤال، ومتى وجدتِ الجواب سأكون جاهزًا للاستماع إليكِ. وخرج الحكيم بدون أن يُعطي الأميرة فرصة للمناقشة.

أمضت الأميرة الأسبوع بلياليه وساعات نهار كلّ يوم منه، ولكنّها لم تُفلح في الوصول إلى جواب. واستولى الحزن واليأس على قلبها. غير أنّ عزّة نفسها أبت الرضوخ أو الاستسلام. وبدا على محيّاها الألم وظهرت الحيرة في عينيها.

في غضون ذلك، طلب الحكيم من الملك إلاّ يتدخّل في الأمر، وألاّ يناقش أيّ شيء مع ابنته حتّى لو سألته. ولكنّها بالفعل لم تذهب لتسأل والدها شيئًا.

وفي نهاية الأسبوع، استدعى الحكيم الأميرة، وخرج معها بنـزهة في ساحة البلاط. وكانت خجولة ومحمرّة الوجنتَين. وإذ تعذّر عليها الجواب، قالت له: لقد عرفتُ واحدًا من هذه المستحيلات الخمس. إنّه إحضار النجمة لعيد ميلادي.

ابتسم الحكيم، وقال لها: أنصتي جيّدًا، يا ابنتي، وافهمي ما أقوله لكِ.

المستحيل الأوّل: أن تكون صبيّة مثلك أميرة ووليّة للعهد، وأن يكون العرش لها بعد والدها.

المستحيل الثاني: أن تنجب الأمّهات رجلاً عظيمًا مثل والدك قاد ويقود المملكة بالحكمة والمحبّة والعدل.

المستحيل الثالث: أن تحصل الصبايا على أمّهات مثل أمّك الملكة الحنونة التي تعتبر جميع الناس أبناءً لها.

المستحيل الرابع: أن تحصل الصبايا على زوج مخلص ومثاليّ وكبير النفس مثل زوجك. أمّا المستحيل الخامس فهو حصولك على كبير أساتذة البلاط معلّمًا ومربّيًا.

واعلمي، يا ابنتي، بأنّ الآلهة قد منحتك ما لم تمنحه لمئات الفتيات. وأنتِ إذا كنتِ تُريدين فعلاً مساعدة الناس وإيقاظ قلوبهم النائمة في الملذّات والماديّات، فليس عليكِ إحضار النجوم لإقناعهم، بل التحلّي بصفات الأميرات والملوك. لا يجني المرء إلاّ القلوب المُريدة للعظائم. لا تحتاج مملكتنا إلى جعل المستحيل واقعًا، إنّما تحتاج إلى قلوب لا يستحيل عليها أن تحبّ، وهذا هو مستحيل جميع المستحيلات. رغب كثيرون في الحصول على جعل الحبّ يخترق قلوبهم، ولكنّهم فشلوا. لأنّ غياب التجرّد هو أساس جميع المستحيلات. نعم، يا بنتي، يستحيل على الأبيض أن يصير أسودًا، ويستحيل على الظالم أن يصبح عادلاً، أتعرفين لماذا؟ لأنّ الذين لا يعرفون عيش الغد وكأنّه اليوم، يموتون بدون أن يعرفوا البتّة أنّ الحياة أجمل بكثير ممّا يجول في رؤوسهم الفارغة، وأحلى من أجسادهم الممزّقة من كثرة الشهوة.

فرحت أثناسيا بكلام كبير الحكماء، واستعادت نشاطها، وذهبت إلى والدها وبشّرته بأنّ عهده عهد المحبّة والعدل لن يزول طالما لا يزال الكون يُنجب أناسًا يعرفون أن يقولوا "لا شيء مستحيل"

وبعد أن أنهى ذيفتروس العظيم القصّة، قال لأعضاء مجلس الأعيان: لا شيء يُعيد إلى مملكتنا عزّها سوى وجود أناس يطلبون المستحيل مثل الأميرة أثناسيا، لأنّ مَن يكتفون بما هو حقير ودنيء لن يستطيعوا البتّة قيادة إمبراطوريّة إلاّ ليوصلوها إلى الزوال. وخرج ذيفتروس من مجلس الأعيان.

نتائج اليأس

في أحد الأيام أتى إلى ذيفتروس شاب في مقتبل العمر، وكانت علامات الإحباط ظاهرة على محيّاه، وسأله قائلاً: أيّها الفيلسوف الكبير، أخبروني عنكم أنّكم تُحلّون المشاكل، وتساعدون المتألّمين، وتخفّفون من أوجاع ذوي الأحزان المرّة. ولمّا كانت الدنيا قد ضاقت في عينيّ، وأوشكت أن انتحر، وجدني صديق لي على هذه الحال، وألحّ عليّ أن أمثلَ بين يديكم وأخبركم عن حالي، وقال لي: إنّ عند كبير الفلاسفة ذيفتروس الدواء الشافي لك. وها أنا اليوم بين يديكم أطلب منكم الترثّي لحالي فأنتم آخر أمل بقي لي للاستمرار في الحياة.

تنهّد ذيفتروس وصمت لدقائق. ثمّ قال للشاب: لقد تأخّرت، يا ابني، في المجيء إليّ، وعلى كلّ حال، سأحاول أن أردّ إليك بعض ما خسرته من أمل في هذه الحياة.

معك حقّ، يا سيّدي، أجاب الشاب، لقد تأخّرت ربّما في المجيء إليك، ولكنّي ما إن نظرتُ في عينيك، حتّى أيقنتُ بأنّ تغييرًا ما سيحدث معي اليوم.

أجابه ذيفتروس: توقّف الآن عن التفكير بوصايا أبيك، وأبعِد ذهنك عن توجيهاته. وحاول...

قبل أن يُكمل الحكيم جملته، قطعه الشاب قائلاً: كيف عرفتَ أنّ مشكلتي تكمن في التناقض الفظيع الكامن بين تعاليم أبي وواقع الحياة؟

يبدو لي أنّك لا ترغب في الاستماع إلى النصائح، فلماذا أتيتَ إليّ؟ أجابه ذيفتروس.

كلاّ سيّدي، عذرًا، أكمل أرجوك.

اسمع، إذًا، هذه القصّة.

في قديم الزمان، وُجد رجلٌ من ذوي الأخلاق الرفيعة والقيم السامية. غير أنّ الآلهة حرمته نعمة الأولاد، فذهب يجول بلاد الشرق والغرب بحثًا عن ابن ليتبنّاه ويُربّيه على غرار ما تعلّمه من آبائه وأجداده من قيم وأخلاق. وكانت لهذا الرجل زوجة آية في الجمال والحُسن، وكانت، هي الأخرى، يائسة من عقمها. وإذ انقطعت أخباره عن زوجته، استسلمت، منقادة وراء يأسها، إلى جميع أنواع الشرور، فأخذت تزني وتسرق وتغدر بجميع مَن كانوا في محيطها.

دارت أيام وشهور وسنوات، ونسي الناس ما كانت عليه هذه المرأة من أخلاق، وبات الجميع ينظرون إليها نظرة احتقار وازدراء.

وفي نهاية الأمر، عاد زوجها من تجواله جالبًا معه طفلاً تبنّاه من إحدى البلاد البعيدة. ولدى وصول إلى المدينة تهلّل وظنّ أنّه يحمل السعادة لزوجته. غير أنّ ظنونه لم تكن في محلّها. طرق باب بيته وكان ينتظر أن تفتح له زوجته وتصرخ فرحة بعودته. وإذ برجل لا يعرفه، يفتح باب بيته، وبدلاً من استقباله بحفاوة، انهال عليه بأقبح الكلمات.

لم يعلم كيف هرب من أمام وجهه، وكيف غادر الحيّ، واعتقد بأنّ زوجته قد تركت المنـزل وغادرته إلى منـزل آخر. غير أنّ الأقدار شاءت أن يلتقي بصديق قديم له، فلمّا عرفه تعانقا طويلاً، وغرقت العيون منهما بسيل من الفرح. وبعد أن سأله أن أحواله استخبره عن أحوال زوجته. فأجابه صديقه: يؤسفني، أيّها الصديق، أن تكون زوجتك قد استسلمت للمجون. تحطّم قلب الرجل لدى سماعه لهذا الخبر، وودّع صديقه والحزن يغمر فؤاده.

انتظر الرجل حلول الظلام، وذهب إلى ضفّة النهر وألقى بنفسه والطفل معه، وغرقا معًا.

والآن أنصت، يا بنيّ، البشر نوعان: منهم مَن يستسلم شابًّا لليأس، فيغرق في المجون هربًا من اليأس، لأنّه لا يجد في هذه الدنيا من سبب يدعوه للعيش وفعل الخير. ومنهم مَن يستسلم بعد طول جهاد، فينتحر ويقتل معه جميع الذين هم حوله.

أمّا أنت، فافهم سرّ هذه الحياة، ولا تستسلم البتّة لليأس، بل اضحك وأبكي في آن معًا. اضحك من ظلم الناس لذواتهم، وابكي على غباء الناس وبعدهم عن معرفة الحقيقة. ليست الحياة مالاً أو بنين أو أملاكًا أو سلطة أو جاهًا، بل هي الساعة الحاضرة التي نعرف أن نزرع فيها حفنة من أمل حيث لا مجال إلاّ لليأس. دعهم يهربون من الواقع الذي اختاروه لأنفسهم، أكمل مسيرتك التي علّمك والدك أن تسير بموجبها. فلا حياة لأولاد يفتقدون إلى كلمة أب. وإذا لم يكن لديك أب، فخاطب الحجارة واجعل منها أبًا لك. ومهما قسا عليك والدك، تذكّر دومًا أنّ الحياة بدون هذه القسوة ليست سوى بعضًا من أوهام تُصرّ على أنها حقائق، وهي، في الواقع، ليست سوى زيف وهباء.

عاد الأمل إلى قلب الشاب بعد سماعه لهذه التعاليم، وخرج من عند ذيفتروس فرحًا.



سنة مضت

انتهت سنة أخرى، وكبُرت الأميرة أثناسيا مع الإمبراطوريّة سنة أخرى. ومع انتهاء السنة، قرّرت أن تختلي بنفسها لتُعيد قراءة الساعات والأيام والشهور التي عبرت مسرعة وكأنّها كانت حلم. فطلبت من والدها أن تذهب برفقة كبير فلاسفة البلاط في خلوة مدّة أسبوع. ولبّى لها والدها مبتغاها، وطلب من كبير الحكماء أن يحضّر لابنته ومحبوبته برنامجًا خاصًّا، وسمح له بأن يأخذها إلى المكان الذي يريده.

استعدّ الحكيم والأميرة للخلوة. وفي صباح أوّل الأسبوع انطلقا معًا في مسيرة بعيدة، ولم تكن الأميرة تعلم بوجهة السير. أمّا الحكيم فكان صامتًا وعابس الوجه، وهي تتلهّف شوقًا لمعرفة المكان الذي قصد الحكيم أن يتجّه بها إليه.

وأمام صمت الفيلسوف لم تتجرّأ الأميرة على التفوّه بكلمة، بل كانت تنتظر منه أن يبدأ بالكلام. وطالت المسيرة ساعات وساعات والحكيم صامت، والعربة تتوغّل في الغابة الواسعة مخترقة الأشجار العالية.

تعبت الأميرة كثيرًا، وكان الحكيم قد سبق أن قرّر ألاّ يقدّم لها شيئًا للأكل أو للشرب، وألاّ يمنحها حتّى بعض الدقائق للراحة.

مرّ الوقت، ومالت الشمس نحو المغيب بدون أن تتوقّف العربة. ولم يتعب الفيلسوف ولم يعطش. وكان يرمقها بنظرة من طرف عينه ليرى إذا كانت لا تزال مستيقظة، أو إنّها قد انهارت من شدّة التعب. أمّا هي فقد أظهرت بأسًا وجبروتًا، وأبت أن تبدو أمامه ضعيفة أو متبعة.

وبينما كانا لا يزالان في عمق الغابة، أدهش كبير الحكماء الأميرة بإيقافه للعربة، وأشار

إليها بيده لكي تنـزل منها. فنـزلت وكاد صبرها ينفذ، وتنهّدت وقالت في نفسها: ما عساه يخفي لي؟

ثمّ تبعها، وتقدّم نحو شجرة قريبة وربط الجواد. ثمّ أخرج ماءً وسقى الحصان المنهك القوى، وأخرج علفًا ووضعه أمامه ليأكل. وبعد أن انتهى من تقديم الوجبة للحصان، أخرج قطعة من خبز يابس ودفعها للأميرة وأشار إليها لكي تأكل. وانطلق هو متوغّلاً في عمق الغابة يحمل معه كيس حاجيّاته الشخصيّة.

استغربت الأميرة جدًّا من تصرّف الحكيم، وبدأ الذعر يدبّ في أوصالها. كيف يمكنه أن يتركني وحدي؟ قالت مخاطبة نفسها، وما هي هذه القطعة اليابسة من الخبز التي دفعها إليّ لأكلها؟ ولماذا لا يبالي بي؟ أهكذا يجب أن تكون الخلوة؟

وبينما كانت في حيرة من أمرها، أسرعت إلى العربة وأخرجت صندوق حاجيّاتها وأخرجت منه بساطًا ووسادة وغطاءً، ومدّت البساط على الأرض الرطبة، واستلقت وأسدلت الغطاء على جسمها، ووضعت الوسادة خلف ظهرها، وراحت تفكّر في الذي يحصل.

مضت ساعة، بل ساعتان على هذه الحال، والحكيم غائب وهي وحدها بالقرب من العربة. وخارت قواها من شدّة الجوع والنعاس. وكاد جفناها يُطبقان على مقلتيها على الرغم من محاولاتها البائسة أن تفتحهما.

ومع حلول انتصاف الليل، كان الذعر قد تملّكها، ونار ثورة عارمة بدأت تتوقّد في داخلها. أيّها العجوز الأحمق أين أنت؟ صرخت بأعلى صوتها. وكان الجواب حفيف الأوراق. وإذ ظنّت أنّه قد نام، عاودت الكرّة: أين أنت أيّها الرجل الغريب الأطوار؟ وليس من مجيب. وأخيرًا أُصيبت بإحباط عظيم، فبدأت تصرخ، وتصرخ إلى ما لا نهاية، وكان الجواب طبعًا الصمت، ثمّ الصمت.

أخيرًا، قرّرت النهوض والتوجّه نحو الغابة لترى أين هو. وبالفعل تقدّمت بحذر، وكانت تتلفّتُ يمنة ويسرى، ولكن من أين لها أن تجده في هذا الظلام الدامس؟ فعادت أدراجها وعيناها تستشيطان غيظًا وغضبًا. واستلقت من جديد تعصر فؤادها الحسرة والندامة.

سأعود في الصباح الباكر، ولن أنتظره، بل سأتركه هنا وحيدًا لكي ألقّنه درسًا لا ينساه مهما عاش، كان هذا قرارها.

وفي نهاية الأمر، لم تشعر بنفسها إلاّ والنعاس يغلبها فتستغرق في سبات عميق.

مرّت ساعات الليل طويلة وشاقّة. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت أثناسيا لتجد ذاتها في مكان آخر. بُهتت وأخذت تفرك عينيها معتقدة بأنّها في حلم. ولكنّها لم تكن سوى في الحقيقة.

كيف وصلتُ إلى هنا؟ وأين هو هذا الفيلسوف السخيف؟ صاحت قائلة. وطبعًا لم يكن من مجيب. ونظرت حولها فإذ بها ترى وعاءً مملوءًا ماءً وقطعة أخرى من الخبز اليابس. أمّا عجوزها فلا أثر له.

هنا بدأت تحاول أن تفهم ما الذي يحصل! وبدأت تدرك أنّ خلوتها ليست سوى هذه الحيل. وكأنّي بقوّة خارقة دهمتها بغتة وسحرتها. لا يجب عليكِ البحث والتفتيش عن الحكيم، جاءها صوت من داخلها، بل يجب عليكِ البحث عن ذاتك.

تنشّطت ذاكرة الأميرة، وراحت تعيد التأمّل في ما تعلّمته من والدها وأستاذها كبير حكماء البلاط. وغرقت في يمّ من الأفكار والخواطر: مَن أكون؟ ومن أين أتيتُ؟ وماذا سوف أصبح؟ وما هي الأهداف التي يجب عليّ السعي لأجل تحقيقها؟ وما عساها تكون نهاية حياتي؟

مضى الوقت مسرعًا، ونسيت حتّى أن تأكل أو تشرب. وها هي الشمس تميل من جديد إلى الغروب.

هدأ روع أثناسيا ونامت قريرة العين تلك الليلة، لتصحو في صباح اليوم التالي وتجد نفسها في سهل قرب بحيرة حيث ينعزل عدد كبير من البرص. وكان الحكيم قد كلّمهم على أمر الأميرة وطلب منهم إلاّ يخيفوها أو يزعجوها.

نهضت، إذًا، من النوم، وأسرعت لتنظر إلى وجوه هؤلاء القوم. أجيبوني بحقّ الآلهة، مَن أنتم؟ ولماذا وجوهكم متآكلة بهذا الشكل؟ صاحت مخاطبة بعض البرص. فتقدّم نحوها رجل منهم، وقال لها: لا تخافي، يا أميرتي، فنحن بشر مثلك، ولكنّ مرضنا هذا خبيث ومُعدٍ ولا دواء له، ونهايته الموت حتمًا.

قاطعته سيّدة القصور، ولكن لماذا أنتم هنا في هذا المكان بالذات؟ اجلسي، يا ابنتي، أجابها الرجل. وإذ جلست، شرع يخبرها عن قصّة هذا المرض والأسباب التي لأجلها يجب عليهم البقاء بعيدين عن المدينة والأصحّاء. ومرّ يوم آخر بين سؤال وجواب، وطلب استفسار وشرح. وأوت الأميرة إلى فراشها الحقير، لتعود في الصباح فتجد نفسها مجدّدًا في مكان آخر. وكان الحكيم قد انطلق بها إلى سجن المجرمين، وكالعادة وضع الحرّاس في أجواء قصّة خلوة الأميرة.

في السجن أيضًا دارتِ الأحاديث حماسيّة ومطوّلة. ومرّ يوم آخر، وأتى الذي بعده، وأثناسيا تجد نفسها مع أشقى أنواع البشر، تتحدّث إليهم وتسمع منهم آراءهم وأفكارهم وتطلّعاتهم.

وانتهى بها المطاف لتجد نفسها في فراشها الملكي داخل البلاط. نهضت سريعًا، وبدون أن ترتدي ثيابها حتّى، دخلت مخدع والدها الذي كان لا يزال في السرير، غمرته بقوّة، وقالت له: أشكرك يا والدي العظيم على هذه الخلوة الرائعة التي علّمني دروسًا كثيرة وهامّة.

أخبريني، يا حبيبة أبيك، ماذا علّمك صديقي الفيلسوف؟ ضحكت الأميرة وأجابته بفخر واعتزاز: علّمني أنّ الحياة ليست محصورة في بلاطنا الملكي. وأفهمني أنّ السعادة موجودة في الغابة والسهل والجبل وفي كلّ مكان، أي حيث يستطيع الإنسان أن يرى غير ذاته. وأوصلني إلى معرفة الفرق بين الطريقين: طريق الألم وطريق الفرح. أتعرف، يا والدي، لقد اكتشفتُ أنّ الفرح ليس الشعور بالفرق الكامن بيني وبين المتألّم، فطالما أنّي لا أتألّم، يجب عليّ أن أكون سعيدة لكي أفيض من سعادتي في قلوب المتألّمين. وعندئذ لا يكون الفرح فرحي وحدي، بل يكون فرح المتألّمين ودواء مَن لا علاج لهم. لقد جعلني أُدرك الفرق بين الحريّة والأسر. نعم، لقد أيقنتُ أنّ حريّتي أسر طالما أنّي لا أزال قابعة في قصر أفكاري واعتقاداتي، والناس في كلّ مكان أحرار حتّى من مجرّد التفكير بأنّ لديهم أميرة مثلي. أدركتُ، اليوم، أنّ أحلامي يجب أن تكبُر وتسمو وتطال السماء. أتعرف لماذا، يا والدي؟ لأنّ كلّ إنسان التقيتُ به، كان يحلم بأن يكون مكاني. لذلك، يجب عليّ أن أحلم أحلامهم وأن أوقظ فيهم الثورة من أجل تحقيق هذه الأحلام بدل المكوث في اليأس والاستسلام. تعلّمتُ أنّي واحدة من هؤلاء الناس حتّى ولو كنتُ ألبس ثيابًا مختلفة، أفكّر مثلهم ولو على طريقتي. نعم، أنا أشبههم، وهم يشبهونني، ويجب أن يصيروا ويبلغوا إلى ما أنا عليه، أي السعادة، وإلاّ فلن أكون أنا. ولقد تعوّدت ألاّ أشعر بالجوع ولا بالعطش، أليست هذه من خصال الفلاسفة؟ سيكون مشروعي للسنة المقبلة بعنوان: "لا لعمر يمضي بدون تحقيق الأهداف".

فرح، سلام، وأحلام حبّ لا تنتهي.

وطوى ذيفتروس المخطوطة التي تحتوي على هذه القصّة، وسلّمني إياها هديّة عيد بداية السنة الجديدة.

الأختان

عندما كان ذيفتروس العظيم لا يزال كبير حكماء البلاط، وعلى أثر الخلافات التي كانت حاصلة بين أهل الحُكم، وجميعهم من ذوي القرابة والنَسَب، وقف في وسط قاعة الملك وروى على مسامع الحاضرين قصّة غريبة لأختين فرّق الدهر بينهما على الرغم من محاولات أبيهما الحثيثة لجمع شملهما.

قال ذيفتروس: كنتُ حاضرًا تلك الليلة عندما أجهشتِ الصُغرى بالبكاء وصرختْ نحو الكبرى، بعد صمت دام سنين، لماذا تكرهينني إلى هذا الحدّ؟

أجابتها الكبرى: أنا أكرهك! إذا وُجد في هذا الكون إنسان لا يعرف معنى الكره، أكون أنا ذلك الشخص.

اندهشت الصغرى، وصمتت لبرهة، ثمّ أردفت: ولكن كيف يمكنك أن تشرحي لي هذا الهجوم العنيف عليّ؟ ألم تنتبهي بعد إلى أنّ قسوتكِ قد حطّمتْ جميع قواي؟ أيّ نوع من الأخوات أنتِ؟

كانت أجوبة الكبرى جاهزة، كما هي عادة، فنظرت إليها بحدّة وأجابت: إنّ جميع تصرّفاتي وكلماتي مليئة بالمحبّة والصدق والصراحة، على عكس ما يمكنكِ أن تتخيّلي أو تتوقّعي.

مليئة بالمحبّة! أيّ نوع من المحبّة هو هذا النوع الذي يسمح لكِ بأن تجرحي، وتجرحي بدون هوادة ولا هدنة؟ أجابتها الصغرى.

أجابتِ الكبرى: اسمعي يا أختي، وافهمي كلّ كلمة أقولها لكِ. قصّتنا طويلة أنتِ وأنا، ولستُ اليوم أرغبُ في العودة إلى ســـابق الزمان، ولا أبغي التوقّف عند أحداث الماضي.

ولكنّي أكتفي بتذكيركِ أنّك أنتِ أيضًا كنتِ المدلّلة والمحبوبة، ونلتِ نصيبكِ من الدلال والعناية والحنان. كنتِ دومًا تلك الصغيرة الصامتة التي عرفت أن تجني من خلال صمتها حنان والدنا ومحبّته، ولم يكن هذا الأمر يزعجني البتّة.

أتذكرين، يا أختي، كم مرّة كان الجميع ينهال عليّ بوابل من الإهانات لمجرّد أنّي كنتُ دومًا صريحة وصادقة؟ طبعًا إنّكِ تذكرين!

مرّت الأيام والشهور وكانت كلّ واحدة منّا تنال نصيبها من الحنان والمحبّة. كنّا أنتِ وأنا في موقع الصدارة بدون منازع، أتذكرين؟ الفرق الوحيد الذي كان بيننا، أنّكِ أنتِ لم تثوري يومًا، ولم ترفعي الصوت يومًا، ولم تتمرّدي على شيء. وأنا كنتُ أجاهرُ بما يختلج في صدري من مشاعر تجاه جميع الأمور التي تخصّ بلاطنا وأمّتنا.

لم يفهمني أحدٌ منكم يومًا، والأسوأ من ذلك أنّ أحدًا منكم لم يحاول ولو لمرّة فهمي. وكنتم جميعكم، أنتِ وجميع مَن في البلاط، تخافون من والدنا لأنّه يعتقد بأنّي كنتُ المدلّلة الوحيدة عنده. اعتقدتم خطأً بأنّ الدلال يعني الحريّة المطلقة حتّى في الغلط والذنب. وكان الواقع على عكس اعتقادكم تمامًا، لأنّي كنتُ دومًا عُرضة للتأنيب والعقاب، وكنتم أنتم جميعكم تنعمون بكلّ الدفء والراحة والمحبّة.

أتعرفين الصراع الذي كان يجول في داخلي؟ لطالما وجب عليّ أن أُحبّ وأُعطي وأهتمّ بالجميع، وأن أُحاسب على أدنى هفوة أو خطأ. لم ينظر أحد منكم إلى كوني كنتُ طفلة صغيرة مثلكم، بل كنتم تعاملونني وكأنّي كنتُ أنتزع منكم مُلكًا زمنيًّا أو ثروة باهظة.

أتذكرين! لم أكن لأعرف كيف أدافع عن نفسي. وكم من اتهامات طالتني من قِبَلكم! ومرّت على عذاباتي أيام وشهور، كنتُ خلالها أحترقُ بصمت. ولم يكن مَن يرثي لحالي.

وشاءتِ الآلهة أن تظهر الحقائق، وأن تُفضح الخفايا. فظهر زيف براءتكم وانجلت حقيقة نعومتكم المزعومة، واكتشف والدنا ما كنتم تدبّرون له من شرور ومكايد.

أين كنتِ أنتِ عندما كان يتألّم ويبكي على صدري، وكنتِ أنتِ وسواكِ سبب ألمه وحزنه؟ في تلك الآونة اكتشف مَن الذي يحبّه فعلاً، ومَن الذي كان يُحيك له الدسائس والمكايد. ليالٍ طوال قضيتُها أبكي وأصلّي من أجله، وكنتم جميعكم لا تزالون تسنّون الخناجر لطعنه. ونسيتم محبّته وحنانه، وعطاءاته وتضحياته. أمّا أنا فلم أنسَ شيئًا من جميع ذلك، ولولا وقوفي إلى جانبه لكان قضى نَحْـبَه من فرط الألم والعذاب.

وليت الأمور انتهت عند هذا الحدّ، بل دسائسكم حكتموها لتهديمي، وتهديم شريك حياتي، وكأنّي وحدي بين البنات قد حصلتُ على شريك حياة! وكم حاولتم زجّنا جميعًا في متاهات أروقتكم المظلمة!

واليوم تعجبين من هجومي، وقد أتيتِ إلى البلاط مجدّدًا قدمًا نحو الأمام وأُخرى نحو الوراء. ليتني أقتنع بصدق نواياك!

جاء وقعُ هذه الكلمات قاسيًا جدًّا على مسامع الابنة الصغرى، وكأنّي بها لم تكن تفهم أيّ كلمة من جميع هذه الكلمات. وساد صمت أشبه بسكون الليل في ظلمات الشتاء. وإذ تعذّر على الصغيرة المصعوقة أن تنطق بكلمة، تدخّلتُ أنا ذيفتروس لتهدئة الخواطر، وبلسمة الجراح.

قلتُ للصغرى: ثوري، أجيبي. لطالما أحبّت أختكِ الصراحة واتّسمتْ حياتُها بها. حاولي الكلام ولا تتردّدي.

ونتيجة لتشجيع ذيفتروس، فتحت الابنة الصغرى فمها وبدأت تتفوّه بكلمات مرتجفة ومختنقة.

قالت: نعم، كنتُ الصغرى والمدلّلة. نعم، كنتُ محبوبة ومفضّلة. لا أنكر البتّة محبّة والدنا لي، ولم أرغب يومًا في الإساءة إليه. ولكن وجبَ عليكِ أن تعرفي الأشياء على حقيقتها.

أين كنتِ أنتِ عندما أتتني الضربة منه قاسية وعنيفة ومدمِّرة؟ أيّ أبٍ هو هذا الذي، عن وعي أو بغير وعي، يُقدِم على إيذاء ابنته بالطريقة التي فعل معي؟

لقد دمّر أجمل ما فيّ وتركني أبكي وحيدة في ليالي عزلتي. وعندما ناشدته الرحمة، أتى موقفه غير مبالٍ بأوجاعي.

قاطعتها الكبرى: إنّ أبي لا يؤذي أحدًا، ولا أسمح لكِ بالتكلّم هكذا عنه، يكفي أن تتذكّري كم الحفلات صنع لكِ!

لم أكن يومًا أفتّش عن حفلات أو هدايا أو سواها، أجابتِ الصغرى. ولطالما كنتُ أريدُ منه فهمًا ووعيًا لمشاكلي وآلامي. أنا لم استغلّ محبّته لي يومًا، ولكنّه أخطأ عندما ظنّ بأنّ الحياة دلال وحفلات وهدايا. وحدكِ أنتِ قد حصلتِ على نُصحه وإرشاداته.

ماذا تقولين؟ أجابتها الكبرى. لقد نلتِ نصيبكِ من الإرشاد والنصح والتوجيه، لا بل نلتِ أكثر ممّا نلتُ بكثير.

نعم نلتُ كلّ ذلك، قالتِ الصغرى. ولكنّه عاملني دومًا وكأنّي كبيرة، ولم يُدرك أنّي كنتُ لا أزالُ صغيرة. في هذا يكمن جرحي الأكبر. لأجل ذلك ثرتُ وانتفضتُ وقاومت. نعم لقد جرحتُه في الصميم، ولم أُشفق على شيبته، ولم يردعني صراخه من شدّة الألم.

ولكنّي اليوم أريدكِ أن تفهمي أنّ ما مضى قد مضى، وأنّي تعلّمتُ الدرس عن ظهر قلب. ندمتُ واعتذرتُ وسامحني وسامحتُه. ولكن لماذا لا تريدين لي العودة مجدّدًا؟

ليتكِ تعرفين ماذا فقدتُ من جرّاء هذه القصّة؟ إنّ إيماني على شفير الهاوية، وأكاد لا أفهمُ كيف ترفعون الصلوات للآلهة وأنتم تتصرّفون بدون شفقة ولا تبالون بما حدث لي، بل تعتبرونني مجرمة يجب إنزال أشدّ العقوبة بها.

اسمعيني أرجوكِ: سأخطو. سأقتحم ليلي، ســـأسرق الحلم قبل أن يُبصر النور. فبعد

قليل ستُخفق رايات الصبح، وسيُضحي القمر الباكي بعيدًا عن أعيننا، والنجوم ستنسحب رويدًا رويدًا ليبقى ذاك الشعاع الذهبيّ اللون بطل هذه المسرحيّة ينادي وهو أشبهُ بمَن يشحذ أحدهم كي يكون يضيفه حتّى إن لم يملك بطاقة دخول.

سأخطو. سأغوص في رمال الصحراء وأتربّع بين نجوم الأفق، وسأركبُ أمواج البحر وأتغلغل بين عبرات عيوننا للمرّة الأخيرة. بعد قليل ستنكشف المشاعر وستنتفض من مسكنها بعد أن طالت مدّةُ مكوثها، وستهمس أشياءٌ كان يُستحسنُ قولها في الليل كي لا يسمعها ولا يرى عريها أحد.

أُقلّب في صفحات ذاكرتي لأكتشف أنّ بين رعشة جسده، وخفقان قلبه، ونبض عرقه، ولهيب ناره، ونسيم روحه الكثير من الكلام ليُقال.

حتّى في صياحه واستهلاكه لجيبه، رنينُه وحشرجتُه، يضيعُ المرء في تفضيل نبرة صوته، لأنّه حتّى في الصراخ يخفي الكثير من الكلام.

وفي عينيه، طُبعتْ جوهرة شمس وقمر، لمعانُ سراب، تألّقُ برق، وأجيجُ نار. وفي ذلك أيضًا الكثير من الكلام اللامع.

حتّى ترتيب السنة، أشكّ في أن تُدركه، إذ للوهلة نفسها يكاد أن يكون جنينًا يخشى المثول في هذا العالم الغريب، مُرهقًا يعيشُ متردّدًا بين اليقظة والحلم، وبين الشكّ والثقة، بين العنفوان والكبرياء، وشيخًا تُشبه حالتُه حالةُ الشاعر التائه في بحر الحبّ والقائل: ما أصعبَ حياة مَن يريدُ الموت، لكنّه يحيا رِفقًا بقلوب محبّيه.

وفي كلماته صدًى بعيدًا وتناثرَ أوراق لا يعرف المرء من أين يبدأ بلملمتها، ونسيمًا غير منظور يضيع بين التلميح والتصريح.

أقلّب في صفحات ذاكرتي قبل أن تنجلي الحقائق أمام ناظري وأمام مسمعي. وقبل أن أشـــــعر بأنّ كلّ شيء يتبدّد مع بزوغ الفجر، وبأنّني أقتربُ من حتفي مودّعة أيامي

العزيزة. فالإصفرار بادٍ على وجهي، والغربة تكادُ تأكل عظامي. يقيّدني السجن ويكاد يقتلُ كلّ ما هو حيّ فيّ، كلَّ ما هو صادق، كلَّ ما هو شبابي، كلّ ما هو مُقدّر أن أعيشه في عمري. لهيب النار ينطبق ويهمس في أذني: عليكِ أن تكبُري، مفروضٌ عليكِ أن تكبري. فكيف أُسكتُه؟ أو بالأحرى كيف أُخرسُه؟ أو كيف أُخمدُ تلك النار فلا أراها مجدّدًا ولا أسمعها؟ ما السبيل؟ أهو الهروب؟ أهو اللجوء؟ وما الفرق، فكلاهما ينمّ عن شعور برغبة في الفرار من السجن والموت، ومن هذه الغربة والنار.

الآن بدأتُ أعي تلك المقولة: "كلّ دقيقة قد تكون الأخيرة، فإنّ ما فُقدَ من الزمن قد فُقد من الأبديّة".

أقلّب بعد، مع أنّ وجداني يكاد يشتعل، وأنفاسي تكاد تنقطع. أُقلّب لأدرك أنّني ظننتُ نفسي أميرة، في عصر كادت أن تزول فيه الأميرات اللواتي يحملن تيجانهنّ في جميع الأسفار، ويذهبن ليروين أخبار عالمهنّ الجميل والساحر، ولينعمنَ، وليصفّق لهنّ الجميع. هذا يأتيهنّ بالأزهار، وذاك بالعطور. خلتُ نفسي أميرة وضعتُ بين همسات الانتصار والتفوّق والروائح الطيّبة المزّيفة. إلى أن أتى في ذلك اليوم فتًى في ربيع العمر ليصعقني بجملته: كفاكِ! ألا تُدركين أنّ الزمن تخطّاك؟

عندها تصبّرتُ في مكاني، ورحتُ أبحث عن منفذ أخرجُ منه، غير أنّ الحشود كانت عظيمة. رأى الجميع الخوف في عينيّ، والرهبةَ التي كانت تصدر على شكل تمتمات لم أعِها في لحظتها، والاستسلام الذي لم يعهده وجهي يومًا، والندم على ما فات من العمر هباءً. أدركتُ أنّني قضيتُ عمري أدّعي المعرفة.

ويا لها من لحظة هدّمت ما بنيته من أسوار ومبانٍ شاهقة العلوّ، وأبراج ومتاحف.

ويا لذاك الوجع الذي تقمّص موتًا، وظننتُ نفسي بعيدة كلّ البعد عنه. عندها بدأ صراعي الكبير، ومَن كان ينتظر دوره بين تلك الحشود وأنا كنتُ أرذله، جاءني والورد الذابل في يديه ينذرني بنهاية هذا اللقاء الفجائيّ الذي لم أقرأ يومًا عنه، أنا التي طالما كانت تبحث عن مجدٍ في قراءة الكتب، ولم تستعدّ لتُلقي عنها خطابًا مزيّفًا في محاضرات.

وهنا قاطعها ذيفتروس ليقول للكبرى: هل فهمتِ الآن حجم الألم القابع في صدر أختكِ؟



ووقفَ الملكُ والدموع تنـزلق دمًا من عينيه، أيّ ملكٍ هو أنا؟

وأكمل ذيفتروس: عصرُ الملوك لم ينتهِ، ولا عصر الأميرات. إنّه هنا في كلّ وقت وكلّ حين. أن تكونَ ملكًا وأميرًا، يعني أن تظلّ طفلاً في قلبك وروحك ونفسك ومحبّتك.

كفاكنّ إيذاء الشخص الذي أراد لكنّ الخير والنموّ والازدهار والسموّ والرفعة. وسيدركُ الجميع يومًا أنّ ما زرعه هذا الوالد من آمال وأحلام وجمال، لن يجدونه إلاّ في دفاتر أساطير هذا الملك. وسيبكي الدهر على مَن لم يفهم يومًا أنّ العمرَ لا يمكنُ أن يُقاس إلاّ بقلوب الأطفال حيث لا وجود إلاّ للأمراء والأميرات، وحيث لا مكان للقتل والظلم والاحتيال والغشّ، بل مملكةٌ واحدة في أرض لا يدنّسها أحد ولا يعبثُ فيها حقود أو صاحب غايات.

في هذه المملكة وحدها يمكنُ عيش "المحبّة بدون حدود". فإمّا أن تكون هذه المملكة أو لن يكون ثمّة مَن يُبشّر بالمحبّة لا بحدود ولا بدون حدود.

آهات ذيفتروس

على ضفّة النهر الكبير جلس ذيفتروس يتأمّل في الحياة والناس، وفي الوجوه والطباع، وفي الملامح والخصال. واسترسل في تأمّله ساعات وساعات حتّى نسي نفسه إلى أن غابت الشمس ولاح في الأفق ندى المغيب. ومع حلول العتمة أخذ بمناجاة الآلهة:

أيّها الآلهة التي ترقبُ وتراقبُ حياة البشر، كم من ملوك حلموا بتحقيق انتصارات لا عدّ لها ولا حصر! وكم من أناس سعوا إلى بلوغ ذروة المجد والرفعة! وملكنا هذا الذي أبادتِ الآلام آماله، وحطّمت المحنُ عزيمته، حتّى متى سيبقى جالسًا هكذا ينتظر بفارغ الصبر بزوغ شمس عزّ الإمبراطوريّة وقد صارت إلى أُفول؟

أيّها الآلهة القادرة على تغيير مصائر الناس، إذا كانت الحياة حلم، فالأحلام فيها ليست سوى خيالات وهميّة لمَن لم يفهموا بعدُ أنّ البشر يصنعون الأقدار.

جلس هناك ينتظرُ أن يأتيه المجد من العلاء، فيما جيوش الأعداء تستولي على أرجاء المملكة. ألم يكن الاسكندر فتًى يافعًا وقد صنع ما لم يصنعه رجل على مرّ التاريخ؟ ألم يكن أخيلس شابًّا وأسقط طروادة المملكة العظيمة؟ ألعلّ رجلاً عجوزًا بسنّي يستطيع أن ينتشل من وهدة اليأس ملكًا طالما ادّعى العظمة والمجد؟

أجيبيني، أيّتها الآلهة، هل لا بدّ للملكة من أن تزال؟ ولماذا وُجدتْ إذا كانت ستزول؟ لا يُعقل أن تكون لكلّ شيء نهاية.

غدًا سأتخلّى عن دوري ومهمّتي كحكيم لهذا الملك، لأنّ يأسه يجعلُني أنسى تاريخ الأمجاد وملامح العظماء. ويجعلني أرى المملكة خرابًا قبل أن تصير بالفعل إلى خراب.

لا، لا يستطيع الحكماء العيش بدون أحلام. ولا يمكن للآلهة أن تُعين البشر طالما أنّهم لا يعرفون أن يدافعوا عن مملكتهم التي أسّسها أحفاد الآلهة.

سيغضب الآلهة على أمثال هؤلاء، وستُصبح الجنّة قفرًا، والمجدُ خزيًا وعارًا. وسيأتي مَن يأخذ دور هذا الملك الذي لم يعرف يومًا أنّ المـُلك لا يكون إلاّ للثوّار، إلاّ لمـُستعيدي تلك الأراضي المـُختصبة.

ثمّ صرخ ذيفتروس بأعلى صوته: أيّها الآلهة، ارحميني، لا أريد أن أصحو من حلمي لأرى أنّ مَن تعبتُ العمر من أجل إرشادهم قد صاروا مجرّد ملوك وأمراء لمملكة منسيّة لا تحمل من تاريخها سوى حفنة من الألقاب التي لا تليقُ إلاّ بصانعي الأقدار.



المربّية والأشواك

ليس من السهل، في الواقع، أن يشعر المرء بفقدان شيء عزيز عليه، فالقطط تصبح عدوانيّة عندما يبدأ صغارها بالبلوغ وبالاستقلال عنها، والأفاعي تصير بحالة هيجان وعدائيّة عندما تغيّر جلدها، فكم بالحريّ الإنسان عندما يشعر بأنّه يفقد أحد أبنائه بموت أو سفر أو زواج!

ولطالما كان ذيفتروس العظيم، إضافة إلى ما تحلّى به من حكمة، دقيق الملاحظة وبعيد النظر، ويعرف أن يقرأ أعماق نفوس أهل البلاط.

بدأت قصّة المربّية والأشواك في اليوم التالي لزواج الأميرة أثناسيا سليلة الآلهة وملكة الدلال والرفاه، عندما شعرت المربّية-الأمّ بأنّ شيئًا ما ينسلخ من كيانها وذاتها. وقد امتزجت فرحتها يوم الزفاف بنوع من الألم الدفين الذي حاولت عبثًا إخفاءه، ولكنّه بقي ظاهرًا في عينيها.

دارت الأيام دورتها، والمربّية تحاول أن تُقنع نفسها بأنّ دورها لم ينتهِ بعد! ومَن مثل أثناسيا بإمكانه أن يستحوذ على قلب هذه المربّية! وفي الواقع، لم ينتهِ دور المربّية سوى في رأسها واعتقادها.

وحصل ما لم تكن تتوقّعه، فالإمبراطور غيّر من سياسته وفي طريقة حُكمه. لقد بدأ يُعدّ العدّة لتسليم الملك لابنته الإلهة. وفي الوقت عينه، أظهرت أثناسيا ميلاً قويًّا وعزمًا لا ينثني لتسلّم مقاليد الحُكم عن أبيها. وصارت أكثر قناعة بأنّ موعد تحقيق أحلامها الكثيرة والكبيرة قد اقترب.

وفي ما كانت الأميرة أثناسيا تعيش صراعات لا عدّ لها ولا حصر انطلاقًا من رغبتها في

إثبات ذاتها، كانت المربّية أيضًا تضمر في داخلها صراعات من نوع آخر. انتهى دوري، قالت في نفسها. وحتّى الملك الذي كان لا يخفي عنها قلقه وأشجانه وطموحاته بابنته، لسنوات طوال، أهملها بعض الشيء، رغمًا عنه، إذ كان لا بدّ له من الجري وراء حلمه الذي انتظره عشرين سنة.

غير أنّ الملك العادل لم يُهمل المربّية يومًا، بل شعر بما تحسّ به. وكان ذيفتروس كذلك يكلّمه عن أمرها. وبادر مرارًا ليُفاتحها بأنّه ينتظر منها دورًا أعظم وأسمى، وبأنّ ابنته لن تبتعد عمّن ربّتها وتعبت عليها، وسهرت من أجلها ليال وليال.

استرسلت المربّية زويي في تفكيرها وغرقت في بحر أوهامها، وتحوّلت كلمات الملك اللطيفة إلى أشواك تغرس في لحمها، ولم تعد تفهم شيئًا ممّا كان يقوله لها.

وبقدر ما كان الملك يحاول التقرّب منها، كانت تزداد قناعة بأنّ دورها قد ولّى وعبر إلى غير عودة، وبأنّها إنّما كبرت وشاخت، ولم يبقَ لها من الطموح والعمر سوى حفنة من الذكريات.

ومع مرور الوقت تبدّلت طباعها وصارت عدوانيّة، ونسيتْ أنّها المفضّلة عند الملك وابنته، وعند جميع أهل البلاط.

إذ ذاك استحضر الملك ذيفتروس العظيم وسأله: فسّر لي لماذا يصبح المرء عدائيًّا. أجابه كبير الحكماء: لأسباب ثلاثة: إمّا لأنّه فَقَدَ جزءً من ذاته. أو لأنّه كان يحلم بشيء ولم يتحقّق حلمه. أو لأنّ غريزة ما في داخله تأبى إلاّ أن تتفجّر.

وعندما سمع الملك جواب ذيفتروس، حاول معالجة مشكلة المربّية بشتّى الوسائل، ولكنّه لم ينجح.

وبدأ الشكّ يسيطر على زويي، وساد في داخلها شعور بأنّها لم تكن يومًا بين رهط المفضّلين عند الملك. ونسيت أنّها هي أيضًا ابنته وأنّه يحفظ لها جميع حقوقها.

إنّي غريبة عن هذا البلاط، هذا ما كانت تردّده في داخلها، ولسوف انتقم لنفسي من هذا الملك الظالم.

وشاءتِ الأقدار أن تظهر شخصيّة جديدة في حياة البلاط. إنّها شخصيّة امرأة أخطأ الملك بحقّها وسبّب لها الكثير من الآلام، بدون قصد. وبما أنّه عادل، ورغبة منه في أن يستفيد من وجود هذه الضحيّة ليُعطي المربّية اندفاعًا نحو الأمام، وينهضها من يأسها وخيبة أملها، فقد وضع الضحيّة في طريقها.

سُرّت المربّية بهذه المهمّة الجديدة التي أُوكلت إليها، ولكنّ ما في داخلها من مخاض لم يكن قد انتهى بعد. وكانت عند كلّ التفاتة من الملك نحو هذه السيّدة تستشيط غضبًا ويأكلها الحنق.

شعر الملك مجدّدًا بما يراود المربّية من تساؤلات، وحاول أن يُجيب عليها بطريقة غير مباشرة. غير أنّها لم تقتنع. لم يعد الملك عادلاً في نظرها. إنّه طاغية عاتٍ، وقد خُدعت بمحبّته لها وعنايته بها. وهي لم تكن يومًا محبوبة لشخصها، بل لما تقوم به من أدوار.

وانقلبت محبّتها لهذه السيّدة إلى مشاعر غريبة لم تستطع هي نفسها أن تفسّرها. تريد ابنتها أثناسيا، ولكن أين هي أثناسيا المنغمسة في أحلامها؟

فاحت رائحة الرغبة بالانتقام من الملك في أرجاء البلاط. والملك لا يزال يحاول تهدئة الأجواء المشحونة.

ودوّى الانفجار العظيم. لماذا تتقبّل جميع أصناف الأشواك من أثناسيا وغيرها، ومنّي لا تتقبّل حتّى كلمة صغيرة؟ صاحت في وجه الملك. أمّا هو فحوّل الجواب على هذا السؤال القاتل إلى ذيفتروس.

هل أحبّت ابنتي لأنّها سليلة الآلهة؟ أم أحبّتها لأنّها ربّتها؟ أو أحبّتها لأجلي أنا شخصيًّا؟ ولماذا لم تؤمن يومًا بأنّ ابنتي، التي ربّتها هي بذاتها، هي فعلاً من مصاف الآلهة؟ لماذا لم تعد ترى النور يشعّ من وجه أثناسيا؟ أسئلة كثيرة بدأ الملك يطرحها على ذاته.

أمّا السؤال الأخطر الذي آلمه كثيرًا فكان: لماذا أحبّتني؟ هل لأنّي عادل؟ أم لأنّي حنون؟ أو لأنّي صارم وقويّ وجبّار؟ وما الذي جذبها في شخصي بالأكثر؟

لقد أردتُها قويّة وجبّارة مثلي لكي تشاركني الحُكم، بالعدل، ولكي تسند ابنتي عندما أسلّمها العرش. أردتها بديلاً عن ذيفتروس الذي سيرحل معي، وسيعبر معي أرض البشر نحو مُلك الآلهة.

والآن أصبحت ترغب برحيلي قبل الأوان. ألم تفكّر لبرهة بوصيّتي لها في الاهتمام بإلهتي الصغيرة؟ وما الذي بات يشغلها؟ ها إنّها تعود أدراجها إلى الوراء لتنظر إلى ينيسيس التي هجرت البلاط منذ زمن بعيد.

مضت شهور والأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ. وأتت ضربة الملك قاضية ومخالفة لجميع التوقّعات، وتبعتها ضربة ابنته أثناسيا التي تعرف أن تقرأ روح والدها ولو عن أميال وأميال. لا احتفال في عيد الربيع، ولا تكريم لزويي، لعلّها تستفيق من سباتها عبر هذا القصاص.

وفي غمرة الألم، دخل ذيفتروس على زويي، وخاطبها بحزم وبلغة لم تعرفها من قبْل. قال لها: لا مكان للخلل في المملكة، وأيّ خلل فيها يؤدّي حتمًا إلى سقوطها. لقد أرادكِ الملك حكيمة لبنات البلاط فلم تفهمي نيّته ولا قصده. لقد ساواكِ بنفسه ولم يظلمكِ يومًا. ولكنّك نسيتِ أنّ مصير الإمبراطوريّة لن ينتهي بعد موته أو زوال حكمه. ولم تفكّري بأنّ في عهده لا وجود للبشر، بل للآلهة. ولم تُدركي أنّ مسبّبات المرض عنده ممنوعة، وأنّه يُغلق أبواب الضعف والتقهقر والتقاعس والتراجع.

ينبع العدل، يا زويي، عند ملكنا من شدّة الحبّ. والحبّ عنده السلطة الأقوى والأعظم. وإنّ أمره أو نهيه لا ينبع عن سلطة أو رغبة في الطغيان، بل عن طموحه غير المحدود في أن يصير جميع أهل البلاط من سلالة العظماء.

يا زويي، يكمن عدل الملك في المساواة بالعطاء، والمساواة في العقاب. وتكمن ذروة العدل عنده في نصرة المظلوم حتّى ولو كان هذا المظلوم قد غدر به.

والآن يجب عليكِ أن تفهمي شيئًا أخيرًا، عمّا قريب سيصدر قرار الملك، وسيكون في قمّة القسوة، فانتظري ما لم تتوقّعي حدوثه يومًا.

وبعد أيام غير قليلة، أصدر الملك قراره الحاسم، فطرد السيّدة المظلومة من البلاط، وأعادها إلى الحضيض، وخلع التاج والصولجان، وغادر البلاط، تاركًا أمر إحقاق العدل للآلهة.

أمّا زويي فلم تفهم، وبقي ذيفتروس وحده يحاول إعادة ما تهدّم بسبب التلوّث الذي أدخلته زويي إلى صدرها.



الحقيقة الوحيدة الباقية

في صباح أحد الأيام، نهض سكّان المملكة مع شروق الشمس، ليروا المملكة وقد اتّشحتْ بالسواد.

وبدأ الجميع يتساءلون ما الذي عساه قد حصل؟ هل مات الإمبراطور لا سمحت الآلهة؟ أم مات أحد كبار أهل البلاط؟ أيّ خطب حلّ حتّى اتشّحت عاصمتنا بالسواد؟

مرّ وقت قصير قبل ظهور طيف ذيفتروس العظيم، ولدى وصوله إلى البلاط الملكيّ خيّم السكون في الأرجاء.

دخل ذيفتروس قاعة الإمبراطور ووجهه مفعم بالحزن والألم، وكنتَ تقرأ في عينيه علامات الغضب. ووقف أمام الملك وصاح: وداعًا أيّها الملك والصديق! وداعًا يا رفيق الدرب وأنيس الليالي الموحشة، ليالي هذه الإمبراطوريّة الصائرة إلى زوال.

اصمتوا جميعكم، صاح كبير الحكماء، ولا يردّ أحد منكم عليّ جوابًا. جئتُ أشكركم على مكافأتكم، بل على عرفانكم بالجميل لهذه المملكة العظيمة التي سجّلت ملاحم المجد على سطح الشمس.

جئتُ أغبّطكم على أعمالكم، أيّها القادة والحكّام والقضاة وأعضاء مجلس الأعيان، لأنّكم محوتم من سجلاّت تاريخنا أساطير البطولة وسطّرتم بدلاً عنها أقاصيص الذلّ والعار.

لقد استبدلتم الآلهة بالمال، والعدل بالظلم، والخدمة بالرشوة، والإحسان بالإذلال، والعطاء بالجشع، والمحبّة بالطمع، والسلام بالمسكنة، والجبروت بالخزيّ، والسلطة بالتسلّط، والمجد بالعار.

شكرًا لكم، لأنّكم استبدلتم كلّ شيء بنقيضه، ليتني متُّ قبل أن أصلَ إلى رؤية هذا اليوم!

زالت أحلام النصر والازدهار، ولم يبقَ من عصور العزّ سوى الأطلال. نوحوا إذا كنتم قادرين بعد على البكاء. غير أنّ عيونكم التي ارتوت من دماء المظلومين والمقهورين، لم تعد قادرة إلاّ على رؤية سفك الدماء.

أنتم "حقيقة"، بل أنتم "الحقيقة" الوحيدة الآن! فزيدوا على القهر ذلاًّ وإذلالاً، وشرّدوا اليتم، واقتلعوا عيون الأرامل، ودوسوا على قبور الأبطال، وأكملوا ما بدأتم من دمار.

ولكن يجب أن تعلموا شيئًا! لو سرقتم منّا كلّ شيء، ولو قلبتم الأبيض إلى أسود، سنستمرّ، وسيبقى "الحلم بالعدل والحقّ" الحقيقة الوحيدة التي سنسير وراءها، ولا بدّ من أن يصل يوم وينتصر فيه الأمل على الشرّ والطغيان.

واستدار ذيفتروس وخرج من القاعة، تاركًا مسيرة الشرّ تكمل طريقها وقد عجز الملك عن ترميم ما هدّمه الأشرار، ولم يبقَ في الساحة سوى طيف أمل بعيد اسمه "طاغية الحقّ المستقبليّة" الأميرة أثناسيّا، التي لا تزال تناضل من أجل "الحلم". ويبقى الحلم أملاً طالما أنّ الآلهة لم تتخلّ بعدُ عن البشر.

الرمز

عند أفول الإمبراطوريّة، وبدء عهد زوالها، زاد اضطراب الملك، وبدا التعب على محيّاه.

وظهر غريب الأطوار، وعجيب التصرّفات، وكأنّه تحت تأثير عقاقير مخدّرة. وصار ينهض باكرًا جدًّا قبل شروق الشمس، ويخرج يتمشّى في ساحة البلاط، وينظر حوله متذكّرًا عهود المجد، ويتأوّه على الأطلال.

وإذ آلت صحّته إلى تراجع مطّرد، دخل إليه ذيفتروس العظيم الذي راح يكلّمه وينصحه بالهدوء والطمأنينة، ويحسّه على الأمل. أمّا هو فلم يكن يُنصت إلاّ إلى صوت ألمه وصراعه الداخليّ.

وبعد محاولات لا عدّ لها ولا حصر، استطاع كبير الحكماء أن يجرّه إلى الكلام.

جلس الملك والدموع تنهمر من عينيه، وقال لذيفتروس: أين غاب مجدُ مملكتنا يا صديقي؟ ألا تتذكّر معي كم كانت هذا الساحة تعجّ بالناس؟ ألا تذكر كم من انتصارات حقّقنا؟

عزيزي ذيفتروس، لم أعرف الفشل في حياتي. ولطالما كنتُ مصدر أمل وثقة لجميع مَن هم حولي. والآن، أين صار كلّ ذلك المجد؟ وأين صاروا رجال الأمس وأرباب تلك الأساطير؟

بدأتُ الآن أعي أنّ لكلّ أسطورة ثمّة نهاية مُحزنة. أريد الرحيل، ولكنّي لا أقوى عليه. أريدُ التخلّي عن العرش، ولكنّي أضعف من أن أقْدِم على ذلك. إنّ أمرًا واحدًا يردعني ويمنعني من القيام بأيّ خطوة تراجع. إنّها أثناسيا ابنتي الإلهة، وريثة عرشي.

أتعرف يا صديقي! لم يبقَ في الحياة من هدف أعيش لأجله سوى أثناسيا! أتتخيّل لماذا؟ لن تتوقّع الجواب!

لا لأنّ أثناسيا ابنتي، ولا لكونها تحمل أحلامي، أو لأنّها سترث عرشي، بل لأنّها أصبحت رمز ذلك الحلم الجميل الذي قضيتُ عمري أحلم بتحقيقه.

زال كلّ شيء، ولم يبقَ سوى وجودها "كرمز". إنّي أنظر إلى الدنيا من خلالها، وإلى الناس بعينيها، مَن أحبّها يعني أنّه يحبّني، ومَن أساء إليها يكون قد أساء إليّ. مَن أكرمها يكون قد أكرمني، ومَن أهانها يكون قد أهانني.

لا يفهمون أنّهم قد دمّروا كلّ شيء فيّ وفي مملكتي، ولكنّ خوفي الوحيد، الآن، أن يأتي يوم ويموت فيه هذا "الرمز-الحلم".

لقد اختزلت أثناسيا تاريخ مملكتي، لأجل ذلك ستبقى ذلك الإله الخفيّ الذي لا يزال يحرّك قلبي لينبض بالحياة، على أمل أن ترفرف، في يوم من الأيام، روحي في سمائها، وتدعمها من العلوّ، لتعيد ترميم مملكتي التي عبث بها مَن لم يؤمنوا يومًا بالحقيقة.

لن تفشل أثناسيا، لأنّ الآلهة لا تفشل أبدًا، أمّا نحن البشر فمصيرنا محتمّ فيه الفشل.

ولمّا قال هذا، عانق ذيفتروس وأجهشا بالبكاء معًا.



السقوط الكبير

بعد أن توالت، على امتداد أشهر، إنذارات الملك بسقوطه الذي أصبح وشيكًا، حلّ اليوم الذي سبق وتوقّع حلوله.

في إحدى ليالي الصيف الحارقة، استيقظ الإمبراطور وذهب مسرعًا لتفقّد أميرته الحالمة أثناسيا، فدخل حجرة نومها، وكما تنبأ حدسه، لم يجدها في سريرها الذهبيّ. فهبّ مسرعًا يفتّش عنها في أرجاء البلاط.

وطال بحثه إلى أن صار في حال من الهذيان والجنون. ومرّ الوقت بطيئًا جدًّا تلك الليلة. ومع انبلاج الفجر، استيقظ جميع مَن في البلاط على أصوات الملك الذي كان يصرخ كالمجنون: أين أخذتم ملكتي؟

وبينما كان يزعق ويولول، إذا بالمربّية تأتيه بهدوء وتقف أمامه وتقول بصوت قرأ فيه الشماتة والسخرية: لقد أرسلتُ ابنتك هديّة إلى إله الأحلام، لأن لا مكان لها في عرشك، أيّها الملك اليائس!

ماذا تقولين؟ صرخ الملك المذعور. أمّا المربّية فأردفت بكلّ هدوء، لو دام العرش لغيرك لما وصل إليك يا صديقي! لقد سئمَت المملكة وشعبها من أحلامك الوهميّة وأحلام ابنتك الإلهة. والآن لم يبقَ لكما من مكان على الأرض، أرضنا نحن البشر. أين هي مُثُلُك العليا؟ وأين هم جنودك الأشدّاء؟ أين هو كبير حكمائك ذيفتروس المتغطرس الجبّار؟

وبينما كانت المربّية مستمرّة على هذا المنوال، كان الملك يرتجف من شدّة الألم، ولم يعد يسمع شيئًا ممّا كانت تتفوّه به هذه السيّدة التي طالما عهدها مثالاً للتربية والحكمة. فجلس على الأرض وقد خارت قواه، وأجابها بصوت المحتضر: لسنوات طوال قدّست ظلّك، وباركتُ يديك، وأغدقتُ عليك فيــض محبّتي، وكنتُ واثقًا من أنّك قد عرفت أنّ

دورك أقدس جميع الأدوار، إذ على يديك يتوقّف مصير الإمبراطوريّة. توقّعت قتلي من قوّاد جيشي ومن جنودي وحتّى من بعض الشيوخ، ولكنّي لم أتوقّع يومًا إلى أن أُقتَل على يدك وبهذه الطريقة. والآن، إنّي أضرب صفحًا كاملاً عمّا اقترفَته يداك لكي تعرفي حلمي وعفوي غير المحدودَين، أمّا وقد أصبحت طفلتي بين يدَي إله الأحلام، فيجب عليك أن تعلمي: ستنبت من جنّة الأحلام وردة، لا بل ورود، وحتّى لو زالت آخر ذكرى من عهدي المشؤوم، ستحكم أرضكم أميرتي من علياء جلد السماء.

لقد دَفنتِ أحلامي، وبعثتِ بعمري إلى حيث لا أعمار لتقاس بأزمانكم، أيّها البشر، وسيبقى وقع ظلّي يرجّف الأرض تحت مواطئ أقدامكم، أيّها الآدميّون الغرباء.

واستلّ الملك سيفه وقطع عروق يده اليسرى، وصرخ بأعلى صوته مَن منكم يريد أن يصير بمصاف الملوك فليأتِ مسرعًا ويشرب من دمي. وسقط الملك طريحًا على ظهره وغاب عن الوعي. أمّا إله الأحلام فانحنى ولمس جبهته، وإذ بالملك يبصر في غيبوبته ولادة أميرات أحلام جديدات في عالم النور والصفاء.

وكتب ذيفتروس العظيم في يوميّاته: لم أرَ في حياتي ميتة تشبه ميتة هذا الملك، ولم أعرف مملكة هوَت بهذه السرعة.

وبقي التاج مرميًّا على الأرض والصولجان بقربه.

وهرب ذيفتروس وتوارى عن الأنظار.

الوقت المُستقطع

هو طبع الإنسان ميّال إلى الإهمال، ومن عادته سرعة النسيان.

مضت أيام على سقوط الملك، ولكنّ الحزن الذي لفّ أرجاء المملكة لم يدم طويلاً، وعاد الناس كلٌّ إلى عمله. وبعد أسابيع قليلة، نسوا حتّى أنّهم أصبحوا يعيشون بدون ملك. وما هي المملكة بدون الملك؟

لم ينتبهِ الناس، في البلاط وخارجه، إلى أنّ الأمور أوشكت أن تتغيّر، وأنّ عصر التسامح والمحبّة والانفتاح والعطاء قد ولّى إلى غير عودة.

وبينما كان الأطبّاء يسعون جهدهم من أجل شفاء الملك، كان واضحًا بالنسبة إلى ذيفتروس أنّ الملك دخل في حالة سبات ما قبل الموت.

وبما أنّ النسيان يُفقد الناس حتّى أدنى درجات الشعور بحجم وهول الكارثة التي حلّت بالبلاد، فقد ظنّ الناس أنّ المملكة لا تزال في حالة عزّها وشموخها. ولم يتيقّنوا من الحالة الراهنة، إلاّ عندما بدأت حاجات كلّ واحد منهم بالظهور.

ولكن، ما بالهم ينتظرون! وماذا يتوقّعون؟ لم يبقَ من المملكة إلاّ طيف تاريخ قديم، وبعض ظلال من عصر عَبَر.

حتّى أثناسيا لم تفهم ما حدث. وكانت تذهب كلّ يوم وتقف فوق رأس والدها الغائب عن الوعي، وتُخاطبه وتقول: عُد يا أبي لكي تعود ابنتك كما كانت عليه قبلاً تعجّ بالحياة والاندفاع.

وكان ذيفتروس ينظر إلى أميرته المحبوبة بصمت، ويتضرّع في قلبه إلى الآلهة لكي تمنحها نعمة الفهم والإدراك. وكم من مرّة أراد هذا الحكيم أن يُخاطب الأميرة صراحة، غير أنّه كان يخشى عليها من هول المفاجأة.

ليتها تفهم، كان يقول في قرارة نفسه، إنّ الملك لن يعود إلى الحياة، وإنّ المملكة تعيش في حالة ترقّب. وفي غياب الملك كلّ شيء يضيع وتعمّ الفوضى.

وفي هذا الوقت المستقطع وجب على ذيفتروس أن يُلقّن الأميرة جميع الدروس ويُحضّرها لتسلّم العرش، ولكنّها كانت صعبة المراس وشرسة الطباع، وترفض تعلّم أيّ شيء قبل عودة والدها.

مسكينة هي أثناسيا، إنّ أملها الوحيد المتبقّي هو ذيفتروس، ولكنّها لا تستطيع العيش بدون والدها.

وكان من الطبيعي، في غياب الملك، أن تبدأ المؤامرات على الأميرة. وأن يبُثّ الأعداء الفكرة أنّ الأميرة لا تصلح لتولّي الحكم واستلام العرش من بعد والدها.

ولم تُجدِ نفعًا نصائح ذيفتروس، ولم تقتنع أثناسيا بأنّ الأمور تغيّرت. وتكمن مشكلتها في كونها لم تعرف قراءة تعاليم ذيفتروس من أوّل درس وحتّى اللحظة الراهنة. ولكن لا بدّ لها من أن تفهم يومًا.

وفي داخل البلاط، كان جسد الملك يرفض التجاوب مع الأطبّاء، وكأنّي بالملك يشعر بالمؤامرات التي كانت تُحاك حوله وحول ابنته.

أمّا ذيفتروس فكان مقتنعًا بأنّ سبات الملك يجب أن يدوم لأطول فترة ممكنة لكي يتسنّى له أن يُهيّأ أثناسيا لتسلّم العرش.

لا شيء يمكنه أن يقلب التاريخ والواقع سوى معجزة من صنع الآلهة. وذيفتروس العظيم نفسه ضعُف جدًّا بعد أن كان هو أيضًا يستمدّ قوّته وسلطته من الملك.

وبقي التحدّي الكبير مفتوحًا: إمّا أن تكون الأميرة على قدر كبير من الوعي والمسؤوليّة وتتعاون مع ذيفتروس من أجل عدم السماح لأحد غيرها بتسلّم العرش، أو تُضيّع

الفرصة من بين يديها وتفقد بذلك حتّى ذيفتروس، إذ إنّ أيّ ملك سيأتي غيرها، لا بدّ له من أن يُصدر حكم الإعدام بحقّ كبير فلاسفة البلاط. عندئذ تكون جميع الأحلام قد زالت، وزال معها كلّ ظلّ من ظلال مملكة الشموخ والعزّ والحضارة.



إعادة بناء العرش
محاورات ذيفتروس مع الأميرة أثناسيا

بعد أن سقط الملك على الأرض، واستولى الهلع على جميع مَن في البلاط وهرعوا إلى نجدته. لفّ الحزن جميع أرجاء المملكة، وبدأت الخلافات بين أهل البلاط تظهر إلى العيان. وفيما كان الأطبّاء يحاولون إنقاذ حياة ملكهم المحتضر، بدأ الطامحون بالملك يشنّون الحرب من أجل اعتلاء العرش. وسادت البلاد أجواء النهب والقتل والدمار، وكأنّ الملك لم يتعب ولم يؤسّس شيئًا البتّة طيلة فترة حكمه، وكأنّ البشر كانوا أشبه بحيوانات مربوطة تنتظر مَن يفكّ أسرها لتنقضّ وتفترس وتقضي على كلّ مَن يقف في طريقها.

في غضون ذلك، كانت أثناسيا تنظر من علياء السماء، وتنتحب على والدها وقد رأته على هذه الحال، وعلى المملكة التي أشرفت على الانهيار النهائيّ.

وفي ما كانت دموع أثناسيا تنهمر من السماء انهمار الندى على الأزهار في ساعات الفجر، إذ بصوت إله الأحلام يُدوّي في أرجاء السماء: لقد حان الوقت لكي تستعدّي لتولّي زمام الأمور! لن تسمح الآلهة لمملكة أبيك بأن تنهار بهذه السهولة. ستكونين الملكة العتيدة. هيّا أغمضي عينيك واسترخي لأنّنا يجب أن ننـزل من السماء على الأرض.

أغمضت أثناسيا عينيها، وما هي إلاّ ومضة عين حتّى رأت نفسها في كوخ أساتذها وصديق أبيها ذيفتروس.

لم يندهش ذيفتروس بحضورها، وانتصب أمامها وانحنى قدّامها إجلالاً وتكريمًا لشخصها ولذكرى والدها، وقال: هلّمي يا ابنتي وسيّدتي، فأنتِ هنا لكي تتحضّري إلى تولّي الحكم. ودوري أنا إنّما يكمن في تهيئتك بأسرع ما يمكن. لكِ الآن أن تسألي، ولي أن أُجيب، ومن خلال أسئلتك سأسير بكِ في دروب المعرفة واليقين.

لقد سقط أبي، لقد سقط الملك العظيم الذي لم يعرف الهزيمة يومًا. أجبني إذًا، هل كانت جميع تلك الانتصارات وهمًا؟ وأكملت...

أثناسيا: ما هي أعظم الانتصارات؟

ذيفتروس: إنّها الانتصار على الأنانيّة. أمّا عن الانتصارات فأقول لكِ ماذا كان والدك يفعل! إنّه كان يسير بهدي هذه الحكمة: إذا أردتَ أن تُحارب عدوًّا لك، وشعرتَ بأنّه ضعيف، فسلّحه وقوّه، ثمّ أعلن الحرب عليه، لأنّ الانتصار على العدوّ، وهو ضعيف، من شيم الجبان الغدّار. وإذا انتصرتَ عليه ودمّرت معظم قوّته، فكفّ وتوقّف، وارحم، لأنّ الرحمة تُعيده ربّما إلى طريق الصلاح.

أثناسيا: متى يكون المرء قويًّا؟

ذيفتروس: عندما لا يحتاج إلى أحد غير ذاته.

أثناسيا: كيف يُعرف الجبان؟

ذيفتروس: من خلال أحاديثه عن بطولاته.

أثناسيا: متى يبدأ الحبّ؟

ذيفتروس: عندما تموت "الأنا". أي بعد دفن آخر غريزة في الإنسان.

أثناسيا: إنّ ذلك يعني استحالة وجود الحبّ، فماذا تجيب؟

ذيفتروس: وهل الحبّ من صفات البشر؟

أثناسيا: من صفات مَن هو إذًا؟

ذيفتروس: إنّه من صفات مَن لا "أنا" لديهم. وهل من بشريّ لا يقول "أنا"؟

أثناسيا: كيف تُفسّر، إذًا، التحابب والزواج؟

ذيفتروس: إنّ الزواج قانون حتّمته طبيعة الإنسان الماديّة. وليس التحابب أكثر من اجتماع واتحاد المتلائمات بين عناصر الطبيعة. إنّ الماء والتراب يجتمـــعان معًا، أمّا النار

والخشب فيؤدّي اجتماعهما إلى زوال الخشب.

أثناسيا: كيف تُفسّر، إذًا، محبّة الأهل لأولادهم والأولاد لذويهم؟

ذيفتروس: نادرون هم أولئك الذين يُحبّون أبناءهم أكثر من سعيهم وراء "أناهم". أمّا الأولاد فطغيان "أناهم" عليهم أكبر بكثير من أن يخوّلهم إدراك معنى الحبّ.

أثناسيا: متى يُصبح الإنسان حكيمًا؟

ذيفتروس: وهل يملك العمر الكافي لبلوغ الحكمة؟

أثناسيا: لماذا وُجد الإنسان إذًا؟

ذيفتروس: لكي يستعدّ للولادة بعد الموت.

أثناسيا: كيف يمكنه أن يستعدّ وهو لا يفكّر إلاّ في "أناه"؟

ذيفتروس: لقد وضعت له الطبيعة جميع أنواع العقوبات لكي تُدفن "أناه" في التراب قبل أن يولد في عالم الأزل.

أثناسيا: إنّك، إذًا، تعني "بالأنا" جسد الإنسان؟

ذيفتروس: كلاّ. أنا أعني شهوات الجسد، لأنّ أجساد السنابل لا تحتاج إلى الدفن في التراب، ومتى دُفنت تُنبت سنابل جديدة. أمّا جسد الإنسان فمتى دُفن زال واضمحلّ وبأبشع طريقة. السنابل خالدة حتّى بأجسادها لأنّها دفنت "أناها" منذ الأزل.

أثناسيا: ما هو، إذًا، خلود النفس؟

ذيفتروس: لو استطاع الإنسان أن يدفن "أناه"، مثل السنابل، لما كان بحاجة إلى عالم آخر غير عالمنا. أمّا خلود النفس فيُشبه موت الماء إذ تحوّله الشمس إلى بخار.

أثناسيا: لكنّ بخار الماء يعود ويسقط ماءً على الأرض!

ذيفتروس: يوجد فرق بين نفس الماء (البخار) ونفس الإنسان. نفس الماء دائمة الطاعة للشمس، أمّا نفس الإنسان فقد شوّهتها عبوديّة الجسد.

أثناسيا: ليس الإنسان حرًّا إذًا!

ذيفتروس: وما هي الحريّة؟ أليست هي العيش بحسب الطبيعة؟ أروني إنسانًا يعيش بحسب الطبيعة.

أثناسيا: وما هو العيش بحسب الطبيعة؟

ذيفتروس: هل تشرب السنبلة خمرًا؟ أم إنّها تأكل لحمًا؟ هل يُزهر بعض منها في القصور والبعض الآخر في أرض قاحلة؟ هل تخنق الواحدة منها الأخرى لكي تعيش؟ وهل يفرض بعضها قوانين وسننًا على البعض الآخر؟ يبدأ العيش بحسب الطبيعة من معرفة الذات، كما سبق أن علّم سقراط الحكيم.

أثناسيا: لماذا، إذًا، وصل الإنسان إلى هذه الحال؟

ذيفتروس: من عدم العيش بحسب الطبيعة. يقول بعضهم: بسبب خضوعه إلى آلهة الشرّ. ويقول بعضهم الآخر: بسبب تعبّده لشهواته.

أثناسيا: وأنت ماذا تقول؟

ذيفتروس: بسبب تخلّيه عن العقل.

أثناسيا: كيف تقول ذلك والإنسان إنّما يتفوّق على جميع الكائنات بعقله؟

ذيفتروس: لو عرف الإنسان استعمال عقله، لاختار دائمًا ما ينفعه وما هو لخيره.

أثناسيا: وإذا سألتك ما هو الذي ينفعه ولخيره، ستقول لي: العيش بحسب الطبيعة. أليس عقله جزء من الطبيعة، فكيف لا يعمل عقله بحسب قانونه الطبيعي؟

ذيفتروس: ممّا لا شكّ فيه أنّ العقل سمة طبيعيّة في الإنسان، وبالتالي وجب أن يعمل بحسب قوانين الطبيعة المغروسة فيه، غير أنّ هذا العقل يُشبه عقول السنابل، فيه جزء ماديّ ولحمي، وإذا لوثّته عناصر غير متلائمة مع طبيعته، لا بدّ له من أن ينحرف عن نظام الطبيعة.

أثناسيا: إنّي أقرأ في كلامك هذا تأليهًا للطبيعة، وكأنّك تنفي وجود الآلهة وتجعل من الطبيعة الإله الأوحد!

ذيفتروس: اعتراض موفّق. كلاّ، لا أنفي وجود الآلهة، ولكنّ روح الآلهة موجودة في الطبيعة، وهي تحرّكها بموجب قوانينها السرمديّة.

أثناسيا: عدنا، إذًا، إلى نقطة البداية. ما هي الحريّة طالما أنّ على جميع الكائنات أن تعيش وفق هذا النظام السابق التحضير؟

ذيفتروس: إنّ الواقع يناقض السؤال عينه. فلو كانت قوانين الطبيعة مفروضة على الإنسان فرضًا، لما كان بإمكانه أن يعيش بخلاف ما تفرضه عليه.

أثناسيا: أنت، إذًا، تُفسّر كلّ اليأس والألم والشقاء والمرض والموت كنتيجة للعيش بخلاف قوانين الطبيعة؟

ذيفتروس: نعم بالتأكيد.

أثناسيا: الآن فهمتُ قصدك وقصد والدي عندما كان يقول لي: إنّك إلهة!

ذيفتروس: نعم. في كلّ ذرّة من كيانك تجري دماء الآلهة المقدّسة والخيّرة والصالحة. ولكن إذا أنت لوّثتِ دمك الإلهيّ بما لا يُناسب طبيعته أصلاً، تنحرف مسيرة حياتك عن غايتها الطبيعيّة، وبالتالي يكون مصيرك الفساد والعناء كما هي حال معظم البشر.

أثناسيا: حسنًا، لقد قلت: قد وُجد الإنسان ليستعدّ للولادة بعد الموت، فهذا يعني أنّه لم يعد أحد يستطيع العيش بحسب الطبيعة، وإذا صحّ قولك، فهذا يعني أنّ الإنسان أصبح عبدًا لعدم الطبيعة!

ذيفتروس: نعم. إنّه بحاجة إلى طبيب ليُطهّر تلوّثه ويُعيده إلى حالة العيش بحسب الطبيعة أي بحسب روح الآلهة.

أثناسيا: حسنًا جدًّا، وكيف السبيل إلى ذلك؟ ألا تستطيع أنت أن تفعل ذلك؟

ذيفتروس: كلاّ، لا أستطيع إلاّ أن أُساعد عقلك وعقول قلّة صغيرة لتعود وتكتشف ذاتها، وتُنقّي تلوّثها، وتعود بعد ذلك للعيش بحسب الطبيعة.

أثناسيا: والباقون؟

ذيفتروس: يجب أن نطرح السؤال على إله الأحلام. يكمن ما أعرفه أنا في أنّ من واجبنا أن نُزيد في عدد الذين توضّحت لديهم هذه الحقائق.

أثناسيا: الآن فهمت قصد والدي ورغبته في تأسيس مملكة يعيش جميع سكّانها بحسب الطبيعة؟

ذيفتروس: ستتدخّل الآلهة يومًا لتُعيد بناء مملكة أبيك على يدك.

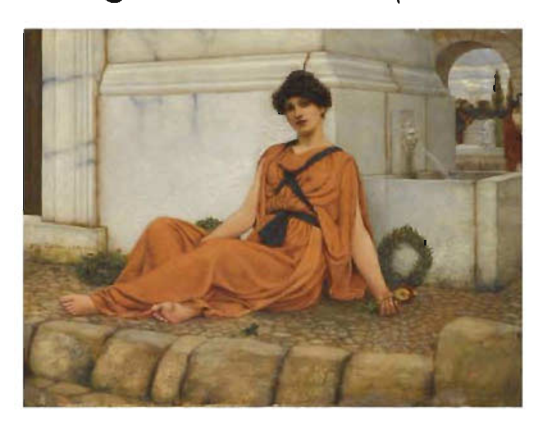
أثناسيا: لماذا لا تتدخّل الآلهة مباشرة وتُغيّر كلّ شيء؟ أليست قادرة على كلّ شيء؟

ذيفتروس: لا أريد أن أُشكّك في قدرة الآلهة على تغيير كلّ شيء، ولكنّ وجودك تدخُّل مباشر لتمهيد الطريق أمام تدخُّل الآلهة المباشر.

أثناسيا: ماذا يجب أن أفعل؟

ذيفتروس: تعالي معي لأُريك العرش الذي تجلس عليه الحكمة.

قال هذا ذيفتروس العظيم، وأخذ بيد أثناسيا وخرج بها نحو الغابة.



تيليوس وذيفتروس

في يوم من الأيام، زار رجل من عامّة الشعب يُدعى تيليوس، كبير الحكماء ذيفتروس، وجلس يكلّمه ويُنصتُ إليه باهتمام ويُصغي إلى حِكَمه.

وإذ وجد تيليوس نفسه أمام رجل واسع المعرفة والحكمة، عزم على سرد قصّة حياته على مسامع كبير الحكماء.

قال الرجل: منذ أن كنتُ طفلاً، لطالما حلمتُ بصُنع شيء عظيم في حياتي يُخلّد ذكري، ويُسطّر اسمي على صفحات تاريخ مملكتنا العظيمة. ولكنّ القدر كان يُعاكسني في كلّ ما كنتُ أنوي القيام به.

لم أذهب إلى الأكروبوليس يومًا، ولم يحالفني الحظّ بأن ألتقي بكبار الفلاسفة. وأمضيتُ عمري وأنا أعمل من أجل والديّ وإخوتي. وكان عمري يمضي ومعه يتبخّر حلمي يومًا بعد يوم.

وعلى الرغم من ذلك، لم أفقد الأمل لحظة، وكنتُ أقول في نفسي: لا بدّ من أن تستجيب الآلهة لأدعيتي في يوم من الأيام.

وكان مصيري الزواج، وما أدراكَ ما هو الزواج وما هي مسؤوليّاته!

حملتُ أوزار الحياة بصبر وتجلّد، وشاطرتني شريكة حياتي لقمة العيش المجبولة بعرق الجبين. وكم من ليال قضيتها حزينًا ومتألّمًا وأنا أفكّر بما جنيته لهذه المرأة من ألم وعذاب نتيجة لفقري وقلّة مدّخراتي.

وعلى الرغم من ذلك كلّه، لم أفكّر يومًا باللجوء إلى صاحب الجلالة لمدّ يد العوز والاستعطاء، بل كنتُ دومًا استجدي عطف الآلهة ورضاها.

ومرّت الأيام، وكم يمضي العمر مسرعًا! ورأيتني، في إحدى ليالي شهر مايوس، بحالة من السعادة والغبطة لم أشعر بها من قبل ولو لبرهة في كلّ حياتي. وحاولت عبثًا أن أعرف مصدر هذا الفرح الغريب الذي انتابني فجأة، ولكنّي لم أنجح. فسلّمت أمري للآلهة، وقلتُ في نفسي: لا بدّ من أنّ الآلهة قد أشفقتْ عليّ، وستمنحني اليوم عزاءً كبيرًا.

وبالفعل لم يخبْ ظنّي، فأمضيتُ طيلة فترة الصيف في حالة في السعادة لا يمكن تفسيرها. ودخلت البحوحة إلى يدي. وأدركتُ بغتة أنّ الطفل الذي حبلت به امرأتي هو هديّة الآلهة، وأنّه سيكون ذا شأن عظيم.

وحلّ الشتاء ببرده القارس، وفي منتصف شهر فبرواريوس أنجبت زوجتي طفلنا وكان بنتًا في غاية الجمال والسحر والنور. ولشدّة فرحي وابتهاجي سمّيتها أورثيّا، لأنّي اعتبرها فجرًا جديدًا في حياتي.

وقد منحتني الآلهة ابنتين أخريين وابنًا واحدًا. ربّيتهم جميعًا أحسن تربية وعاملتهم بالتساوي، ولكنّ أورثيّا طالما حظيت منّي بشيء من الحنان والحبّ أعجز أنا نفسي عن تفسيره. لقد اعتبرها هديّة الآلهة المميّزة تحقيقًا لدعائي.

منذ نعومة أظفارها لمستُ فيها دفء مايوس وربيعه، وفي الوقت عينه، غضب فبرواريوس وعناده. وعشقتُ بالأكثر إطلالة الفجر في عينيها. ولكنّي، وبكلّ أسف، لم أستطع أن أحقّق لها ولأخوتها أيًّا من أحلامهم في الرفاهية والعيش الرغيد.

وشبّ الأولاد على محبّتي ونصحي وإرشادي، وقد منحتهم كلّ ثقة. ولكنّ سعادتي الناقصة أصلاً، لم تدم أكثر، إذ بين ليلة وضحاها أتتني أوريّثا وطلبت منّي أن تذهب إلى بيريا، تلك المدينة البعيدة التي لا أعرف عنها سوى اسمها. وبما أنّها كانت دومًا معبودتي، وبما أنّي لم أرفض لها طلبًا في يوم من الأيام، دست على قلبي، وغلبت عقلي وأذنتُ لها بالرحيل مُقنعًا ذاتي بأنّها ستجد هناك مستقبلاً أفضل ممّا كنتُ أحلم بتأمينه لها. وليتني لم أفعل.

لم أتوقّع لحظة، أنّ أنيسة روحي كانت لتعمل نادلة في حانات بيريا. ولم أتخيّل أنّها كانت لتلتقي هناك بجميع أشكال البشر وأصنافهم. وماذا يعرف المرء عن نوايا البشر؟ لم أكتشف إلاّ بعد انقضاء وقت طويل أنّ ابنتي كانت هاربة من واقع ما، ولا تزال، ولكنّي لم أعرف لماذا هي هاربة وممّا؟

كنتُ ولا أزال كلّ ليلة أناجيها بدموعي وآهاتي، وأدعوها إلى العودة إلى أحضاني. ولكن عبثًا.

وأيقنتُ أخيرًا بأنّ أحدًا لا بدّ سيسرق منّي فلذة كبدي. وهذا فعلاً ما حصل. ولكنّي لا أزال أجهل مَن هو هذا الشخص الذي سرقها منّي.

ومع مرور الوقت، كان ضعفي أمامها يزيد، وصرتُ أخجل من التكلّم معها والسؤال عن أحوالها لعلمي بأنّي أنا نفسي كنتُ سبب هربها. ولم أكن أبًا صالحًا، ولم أعرف قيمة العطيّة الكبرى التي منحتني إياها الآلهة. ووصل بي الحال إلى قبول كلّ خيار تقدّمه إليّ على أنّه الخيار الصحيح. وهل لي أن أُفتّش عن صحّة هذا الخيار أو ذاك وأنا غائب ومتغرّب عنها؟ طبعًا لا.

ولم تعد تجمعني بابنتي سوى غزيرة الأبوّة والبنوّة وبعض المظاهر الاجتماعيّة التي تحتّم عليّ أن أظهر بمظهر الأب السليط والمقرِّر، وفي الواقع، لم أكن سوى رجل مغلوب على أمره.

وكنتُ أشاهد تقلّبات شخصيّتها، وتحوّلات جسدها، وأنزف في داخلي دمًا ودمارًا.

ومع مرور الأيام، صرتُ مجرّد أبٍ بالجسد وفي سجلاّت الإحصاء، الأمر الذي زاد من تعبيري عن محبّتي لها وحنيني إليها، ولكنّي، حتّى في محبّتي، لم أجسر يومًا على معانقتها ومداعبتها، وكنتُ أخشى من أنّها قد كبُرت على ذلك.

ليتني كنتُ قد فعلتُ! وعندما اشتدّ بي الضيق، رحتُ أتضرّع إلى الآلهة لكي يأتيني مَن يطلب الزواج منها، أقلّه أُريح روحي المعذّبة، وأطمئنّ على أنّها أصبحت بين يدَين أمينتَين.

وليتَني لم أتوسّل لأجل تحقيق هذه الأمنية! لقد أرادت الآلهة أن تُلقّنني درسًا لا أنساه جميع ما تبقّى من أيام حياتي لقاء إهمالي لعطيّتهم. فقد أتتني في أحد الأيام ومعها رجلٌ يكبرها بسنوات، وهو من مدينة تيروس البعيدة، هي المدينة التي حطّمت قلب الاسكندر العظيم وأدخلته في حرب مدّة أشهر طويلة بدون أن يستطيع التغلّب عليها. لم أتذكّر ذلك إلاّ بعد فوات الأوان. رجل من تيروس مدينة القلوب الحجريّة والنفوس العدوانيّة.

رضختُ إلى طلبها، بعد أن جمّلته بأفضل الصفات وزيّنته بأحسن المناقب، وقدّمته إليّ كرجل الشهامة والعنفوان، لدرجة ظننت معها أنّه ينحدر من سلالة الأميرة أثناسيا إلهة بلادنا.

لن تصدّق، أيّها الحكيم الكبير، إذا قلتُ لك إنّه كان متزوّجًا بفتاة قبل ابنتي، وإنّه هجرها، ومَن يعلم لأيّة أسباب.

أتاني بمنمّق الكلام حتّى خلتُه ابن أثينا. وكان ما كان... ورماها كما سبق له أن رمى زوجته السابقة، بعد أن انتقم ممّا تمثّله أعني بلادنا اليونان.

وكالعادة، كنتُ ضعيفًا جبانًا ولا حول لي ولا قوّة، وتركتُه يعبث بابنتي ويدّمر أجمل ما فيها، ولم أُحرّك ساكنًا. كلّ ذلك لأنّي لم أتنبّه يومًا إلى البداية، فصرتُ إلى مثل هذه النهاية: لا أملك من ابنتي سوى كوني أنجبتُها.

وقبلتُ مرغمًا جميع قراراتها. أرادت البقاء في إمارة ليفانوس، وادّعت بأنّها قادرة على الاهتمام بشؤون حياتها.

وها أنا اليوم عندك، أيّها الحكيم، أندب حظّي. وأرثي لحالي، فماذا تقول لي؟

تنهّد كبير الحكماء ذيفتروس، ثمّ صمتَ وكأنه يُبحر بعقله في الأفق البعيد.

الويل ثمّ الويل، صرخ ذيفتروس، لابنتك إنّ الآلهة إذا أرادت أن تُعاقب إنسانًا، أرسلته إلى ليفانوس. وما أدراكَ أيّ أرض هي هذه الأرض!

سيخلبُ ابنتك جمال غاباته، وسيسحرها شاطئ بحره، وستفتنها روعة سهوله، وستضيع في كلّ مغرياته.

لم يغزو غريب هذه الأرض إلاّ وعاد منهزمًا. إنّ ليفانوس هو أرض "الـ لا أحد". إنّه بلد الضياع والفقدان. ولطالما سكنتُه الشعوب التي نفتها الآلهة عقابًا لها. إنّه أرض الخطايا والآثام، وفي الوقت عينه، أرض الوعد والانتظار. وشعبه الهجين يعيش في حروب دائمة، ولن يعرف السلام يومًا.

صلّ إلى الآلهة لكي لا تضيع ابنتك في مجاهل هذه الأرض، وتضرّع لكي تُقصّر الآلهة من وقت عقابها.

أمّا أنت، فكفّ عن الحزن والنحيب والألم، لأنّ كلّ ذلك لا ينفع وقد مضى وقتُ البكاء والحسرة. ولكن تعلّم، في ما تبقّى لك من عمر، أن تمارس دور الأب بالفعل.

ولا بدّ لي من كلمة أخيرة أقولها لك، واسمعها جيّدًا. إذا استطاعت يومًا الأميرة أثناسيا أن تُخضع أرض ليفانوس تحت لوائها، وأن تُعيد بناء مملكة أبيها وتحمل قيم حضارتنا إلى تلك الأرض، فابنتُك ستكون بين أيد أمينة.

أمّا في الوقت الراهن، فيجبُ على ابنتك أن تندم وتتوب على جميع ما اقترفت نفسُها الأرضيّة من أخطاء. إنّ الآلهة لا تسمح لعطاياها بأن تضيع إلى الأبد، وكن على ثقة من أنّ روح ابنتك ستولد من جديد إن هي عرفت أن تقرأ ما منحته إياها الآلهة من هبات.

وستدخل إلى مدرسة بيريتو، وهناك ستتلّقى دروس الحياة من جديد. ستكون في محنة عظيمة ولكنّها ستصبح "ابنة" حقيقيّة بعد أن كانت "شبه ابنة"، وستصل إلى السعادة بعد المخاض.

قال هذا ذيفتروس وودّع الرجل، ودخل يبتهل إلى الآلهة.



عيد ميلاد الإمبراطورة أثناسيا

في ذكرى عيد ميلاد الإمبراطورة العظيمة أثناسيا، حضر الحكيم ذيفتروس فجأة، وأدهش حضوره الجميع. وبينما كان جميع مَن في البلاط منشغلين بتحضير الاحتفالات، كان لذيفتروس احتفال من نوع آخر.

عانق الفيلسوف ابنه العظيمة، وضمّها إلى صدره، وشرع يُخبرها القصّة التالية:

ابنتي الغالية أثناسيا، في قديم الزمان هبّت حرب ضروس في إحدى البلاد، ودامت سبع سنوات، وراح ضحيّتها آلاف الأبرياء، وتشرّد الناس، وماتوا فقرًا وجوعًا، وعانى الأطفال من ويلات تلك الحرب التي لم يرحم أصحابها أحدًا.

في تلك الفترة بالذات، شاءت الأقدار أن يمرض ملك تلك البلاد، وأن يمكث طريح الفراش بدون أمل في الشفاء. وبما أنّ تلك المملكة كانت ضعيفة ولم تكن قادرة على الصمود، وبما أنّ الملك لم يكن بيده أيّة حيلة، فقد سلّم زمام الأمور لأحد القادة الشبّان، وكان ذاك يفتقر إلى الخبرة والتجربة والحنكة، ولكنّه كان موضع ثقة الملك، ومحطّ أنظار الناس.

وما إن تسلّم القائد الشابّ زمام الأمور، حتّى راح يبحث هنا وهناك عن وسيلة لمساعدة ضحايا الحرب ومنكوبيها، وقدّم الكثير، بنوع تحفّظ ولا تردّد ولا خوف. ولم يفكّر أحد يومًا أن يسأله كيف تساعد الناس، ومن أين تأتي بالأموال والقمح والزيت! وكان الجميع سعداء في أن يجدوا مَن يقف إلى جانبهم ويساعدهم.

ولكنّ هذا القائد الشاب كان يمارس سياسة الأمر الواقع، وبدلاً من أن يقف ويقول للناس، لقد فرغت خزينة الإمبراطوريّة، استعان بأصحاب المصالح البعيدين والقريبين،

من أجل أن يجني منهم الأموال والقمح والزيت وغيرها من مستلزمات حياة هؤلاء المقهورين من الحرب.

ولم يفكّر القائد الشاب بأنّ ما يفعله قد يضع الإمبراطوريّة في مواقف حرجة، أو قد يُعرّضها للغدر ولسيطرة الطامعين الذين يُعطون اليوم، ولا أحد يعرف متى يأتي اليوم الذي فيه يأخذون.

ودارت الشهور والأسابيع، وعظُم صيت الشابّ، وكبُرت ثقته بنفسه، وربّما ظنّ نفسه للحظة أنّه سيكون وريث العرش الإمبراطوري، وسيخلف الملك في حكم البلاد.

غير أنّ القدر جاء معاكسًا، فهذا الشاب لم يصل إلى سدّة العرش، ووقع الاختيار على قائد آخر لا يقلّ عنه اندفاعًا في محبّة الخير والدفاع عن الفقراء والمحتاجين. ولكنّ الاثنان، ونظرًا إلى شبابهما، فاتهما قول فيلبّوس لابنه الاسكندر العظيم، عندما رآه يُغدق الأموال هنا وهناك، "أيّ حكم أخرق، قادكَ إلى هذا الأمل: أن تفكّر في أنّ الذين قد أفسدتهم بمال سيكونون لك مخلصين؟ أو إنّك تفعل ذلك للمقدونيّين لا لكي يرجوا أن تصبح مَلِكهم، بل خادمهم ووكيلهم. أناس عديدون بذّروا أموال أسرهم متجّودين بطيش".

ظنّ القائد الشابّ أنّ إغداق المال على الناس، ولو في حالة الحرب، سيجعلهم مخلصين له، ولم يعرف أنّ الإخلاص شيمة من شيم العظماء لا تُباع ولا تُشترى بالهبات والتقادم. وعندما وصل القائد الجديد الشابّ ليكون إمبراطورًا، قدّم كثيرون الولاء له بدون أن يُفكّروا ولو لبرهة بأنّ القائد الشابّ عرّض حياته وسمعته للخطر في سبيلهم!

والأغرب من هذا كلّه أنّ الإمبراطور الجديد الشابّ، أراد أن يتّعظ من أخطاء القائد الشابّ، ولكنّه بدلاً من أن يُقيمه على جميع أموال الإمبراطوريّة لمجرّد أنّه حافظ عليها

في الحرب ولو بأسلوب غير حكيم، قرّب أصحاب المصالح الداخليّين منه، وهم أولئك الذين رفعهم القائد السابق بدون استحقاق، واستثمروا أخطاءه وهفواته، وجعل يُظهرون أنفسهم حماة للإمبراطوريّة ولملكها الجديد.

وهكذا، كانت الخسارة أعظم، ففي الظاهر حاول القائدان أن يُظهرا الإخلاص والولاء أحدهما للآخر، ولكنّهما في الباطن كانا في حالة ضياع أمام حجم الكارثة الحقيقيّة من جهة، وأمام تسليط الأنوار على الحقيقة الواقعة من جهة ثانية.

ابنتي أثناسيا العظيمة، لقد نسي كلاهما ما علّمه هيراقليطس العظيم: "الخير والشرّ واحد. فالأطبّاء الذين يقصّون ويكوون المرضى في كلّ مكان (من الجسم)، يطلبون منهم بغير حقّ أن يكرّموهم طالما أنّ أدويتهم متعبة هي الأخرى كالأمراض".

ونسي الاثنان تعليم إبيقورس الحكيم: "الضرورة شرّ، ولكن لا توجد ضرورة للعيش تحت مملكة (حُكم) الضرورة".

فإذا كان ما فعله القائد الشابّ غير المختبر ضرورة، والضرورة شرّ، فلا يجب أن يعيش الإمبراطور الجديد تحت حكم هذه الضرورة عينها.

أُذكّرك يا ابنتي "مَن هم أولئك الذين نريد أن نسُرّهم؟ ولأيّة غايات وبأيّة وسائل؟ كم بدّد الزمن جميع ذلك! وكم من أشياء سبق وبدّدها"

وأُذكّرك أيضًا "لا تجدر مناقشة كلّ شيء في عمّا يجب أن يكونه رجل الخير، بل بالأحرى (يجب) التشبّه به".

نعم يجب التشبّه برجل الخير، فكم من أناس خسروا أصدقائهم لأجل مفاهيم مثاليّة في الظاهر، وهي في مضمونها مجرّد اختلافات في الآراء.

أخيرًا، أوصيك، لا يحتاج حكم الإمبراطوريّة إلى التصـويب والإصلاح والترميم الخ. إنّما

يحتاج إلى عيش حكمة الفيلسوف إبيقورس "من بين جميع الخيرات التي توفّرها لنا الحكمة لسعادتنا في كلّ حياتنا، الصداقة هي الأكثر والأكبر".

ثمّ عانق ذيفتروس ابنته وتمنّى لها الحكمة الأبديّة، ومضى من حيث أتى.



رسالة ذيفتروس إلى الأميرة أثناسيا

ابنتي الغالية، عرفتُ أنّك تتألّمين، وأنّ ما يجري حولك في البلاط يُضايقك كثيرًا، لذلك، أبعث إليك بهذه الرسالة لكي أُذكّرك بوصاياي.

سبق أن قلتُ لك: إياك أن تثقي بأناس أراد والدك أن يُشيّد لهم القصور، فحاربوه، وطردوه، وحرقوا قلبه، وها هم اليوم، يبنون لهم مغارة صغيرة تليق بهم. هكذا هم صغار النفوس، لا يستطيعون العيش في القصور. فإياك أن تثقي بهم.

واليوم، أُكرّر لك نصائحي. إياك أن تثقي بإنسان لا يعرف أن يأخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، بل يميل أذنه إلى هذا وذاك، ولا يملك في نفسه التمييز بين الخطأ والصواب.

إياك أن تثقي بإنسان إذا ما فشل في تحقيق أهدافه، يلجأ إلى أساليب متلوية يقهر بها خصومه، حتّى ولو كان مظلومًا. إياك أن تثقي بإنسان لا يُجابه الخصوم في وجوههم، فالمجهابهة من الوراء من شيم الضعفاء والجبناء.

إياك أن تثقي بإنسان لا يعرف أن يثق بالمستقبل، ولا يعرف أنّ الطريق الصاعدة هي عينها الطريق النازلة. إياك أن تثقي بإنسان يُدهشك بكلامه الرنّان، أمّا أفعاله ففارغة مثل فراغه الداخلي.

إياك أن تثقي بإنسان فقير النفس كان خادمًا للملك، فأصبح وزيرًا عنده. إنّه سينتقم لا محالة. إياك أن تثقي بإنسان كريم وعظيم، ولكنّه في وقت الشدائد يضعف ويتصرّف كالأطفال. إياك أن تثقي بمَن باع سيّده وخانه من أجل مركز أو سلطة أو مال.

أذكّرك بهذه النصائح، وأرجو أن تبعثي لي برسالة أطمئن بها عليك.

ذيفتروس

للمؤلّف

١- **فهرس مخطوطات مكتبة أبرشيّة حلب المارونيّة**، المجلّد الأوّل المخطوطات ١-٣٠٠، حلب، ٢٠١٨.

٢- **اعترافاتي**، الجزء الأوّل، طبعة أولى، حلب، ٢٠١٨.

٣- **هوذا الرجل**، الإطار التاريخيّ لحياة يسوع المسيح، حلب، ٢٠١٧.

٤- **السنكسار الأنطاكي للبطريرك مكاريوس الثالث ابن الزعيم (١٦٤٧-١٦٧٢)**، سلسلة التراث الأنطاكي، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية - لبنان، ٢٠١٠. بالاشتراك مع المطران ميشال أبرص.

٥- **رتبة تكريس الشموع يوم عيد دخول الربّ إلى الهيكل**، سلسلة اليوبيل المئوي الثالث للرهبانيّة الباسيليّة الحلبيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠٠٨. بالاشتراك مع الأب روجيه أخرس وغادة كمال خوري.

٦- **أقدم كنيسة رعويّة للروم الكاثوليك في الشرق**، كنيسة القدّيس جاورجيوس - زوق مكايل، المطبعة البولسيّة، ٢٠٠٥.

٧- **الجزء المظلم من وجهك**، سلسلة محبّة بدون حدود، زوق مكايل-لبنان، ٢٠٠٤. مجموعة قصصيّة بالاشتراك مع ميراي صعب.

٨- **قطّان المطران باسيليوس**، لمحات من حياة نيوفيطوس نصر أسقف صيدنايا، طبعة أولى، مطابع جوزيف رعيدي، بيروت، ٢٠٠١. بالاشتراك مع الأرشمندريت بولس نـزها.

٩- **وثائق هامّة في خدمة كنيستنا الأنطاكيّة**، مَن صنع الانفصال سنة ١٧٢٤، منشورات النور، بيروت، ٢٠٠٠. بالاشتراك مع زياد الخوري.

الترجمات

١- **الطوباويّة ماري دو لا باسيون مؤسّسة رهبانيّة الفرنسيسكانيّات مرسلات مريم**، الجزء الثاني، الفصول ١١-٣٠، طبعة أولى، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠١٨، بالاشتراك مع الأخت سميّة قرة كلّة.

٢- ألكسندر مان، **يسوع معلّم الناصرة**، منشورات النور، بيروت.

٣- **نخبة مختارة من حكم الأقدمين**، سلسلة حكميّات ٣، طبعة ثانية، منشورات المكتبة البولسيّة، جونية-لبنان، ٢٠٠٥.

٤- **خطاب إلى المعلّم أوريجينوس**، منشورات النور، بيروت ١٩٩٩. ترجمه عن الفرنسيّة واليونانيّة بالاشتراك مع ناتاشا يازجي.






جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف